إسلاميات
كاتب
مسيحي

7

نظمي لوقا
مسيحي الصليبة- إسلامي الهوى

obeikandl.com

obeikandl.com

كان لابد – من باب الموضوعية وحب الحقيقة أيضا أن أختم هذا الكتاب،بدراسة عن نظمى لوقا،أحاول من خلالها أن أفهم القارئ قليلاً عن نظمي لوقا، وهى دراسة لن أستعين فيها فقط بما كتبه هو،أو بما كتبه عنه مناصرون ومؤيدون فى اتجاهه، ولكنى سأركن قليلًا إلى ما يمكن اعتباره الرد الرسمى للكنيسة على كتابه «محمد الرسالة والرسول»، وهو الرد الذى حمل عنوان«الدكتور نظمى لوقا فى الميزان ..ردا على كتابه محمد الرسالة والرسول»،وكتبه القمص سرجيوس،وهو تقريبا الرد الوحيد المكتوب الذى أصدرته الكنيسة على إسلاميات نظمى،هذا بالطبع غير ما كتبه هو عن علاقته بالإسلام وموقفه منه فى أكثر من موضع.

(١)

وهنا أضع أولا نصين متقابلين.

الأول: كتبه نظمى عن نفسه فى كتابه «محمد الرسالة والرسول» ، وأقصد تحديدا ما كتبه عن علاقته بالإسلام منذ كان طفلا صغيرا،تحت عنوان :صبى فى مسجد،يقول نظمى يصف نفسه: « صبى قصير، نحيل، عصبى الملامح، واسع العينين، تطل منهما نظرة تطلع،وفى ثيابه إهمال،وفى يديه آثار حبر،ورباط حذائه مرسل يكاد يتعثر به وهو يمشى،وسنه لم تتجاوز السادسة إلا قليلا،يقطع الطريق جادا مسرعا بعد صلاة العصر بقليل إلى مسجد فى السويس،قريب من مبنى المحافظة بها،لا يلوى على شيء.

يتمهل الفتى عند دكان الحلاق الذى يواجه المسجد،ليرى الشيخ جالسا،بقامته المفرطة فى القصر،وجبهته المفرطة فى العلو،وبشرته البيضاء المحمرة،وثيابه النظيفة الناصعة،ولحيته الصهباء التى يخالطها بياض كثير،ويقرئ الفتى أستاذه الشيخ السلام،ويهش الشيخ للقائه، ويده تداعب ساعة جيبه الكبيرة المصنوعة من المعدن،

يفتحها ثم يتحيي عقاربها،ويغلقها ثم يعيدها إلى جيب قفطانه الأبيض،وترتسم على وجهه ظلال ابتسامة،يكاد الفتى يراها فى موضع عينى الشيخ،لولا أن هاتين العينين أغلقهما مرض فى الطفولة الباكرة إغلاقا أبديا».

ويواصل نظمى وصف حاله مع شيخه:«ويتأبط الشيخ الكفيف ذراع الصبى،وإنه ليضارعه طولا أو قصرا،ثم يدب بعصاه عبر الشارع،والصبى لا يخطئ نظرات الفضول من الحلاق،وزبائنه وعابرى السبيل،إلى أن يدخل الشيخ وتلميذه من باب المسجد،ليبدآ درسهما اليومى من بعد صلاة العصر إلى صلاة العشاء».

حدث هذا فى مدينة السويس الصغيرة سنة ١٩٢٦،لم يكن أحد من أهلها يجهل من هو الشيخ سيد البخارى،إمام مسجدها وعالمها وفقيهها،يجلونه ويرهبونه،فإن له لعلما ورأيا،وإن فيه لشجاعة فى الحق وذرابة فى المنطق،وأنفة تدخلهم لديهم مدخل الكبر الذى لا يغتفر لم كانت به كالشيخ خصاصة شديدة يداريها بتجمل أشد،ولم يكن أحد من أهل السويس يجهل كذلك من هو الصبى الصغير- نظمى لوقا - ،ابن ذلك الموظف النازح إلى السويس،فيه وسامة وأناقة،وفى لسانه عذوبة وذلاقة،وإنهم ليعرفونه رجلا قبطيا يؤم الكنيسة يوم الأحد.

وفى مدينة كالسويس يتساءل الناس عن النازحين إليها والغرباء من الطارئين، وهم يعرفون أن لهذا الموظف والد الصبى أرومة معرفة فى صناعة القسوس،فكم له من جد من ذوى الطيالس السود والعمائم السود،فلا شك إذن فى قبطية الصبى الذى يرونه كل يوم يؤم مسجدهم الحنيف مع الإمام العالم الشيخ،وأن الحيرة لتستبد بهم،ثم تأخذهم نافلة الغيرة،يتهامسون بها فيما بينهم ويتناجون،ومن أم منهم المسجد لصلاة المغرب،رأى الشيخ ينفض يده من درس الفتى فى مؤخرة المسجد، ويتقدم فيؤم المصلين،ثم يعود ليصل من الدرس ما انقطع،والفتى ينظر

إليهم مصلين،ويسمع لما يتلى فى الصلاة،وفى عينيه ذلك التطلع القلق فمنهم من يزور عنه،ومن يحملق فيه بفضول.

خرج بعضهم من النجوى إلى العلن،فجاهر الشيخ بما فى نفسه،وراجعه فيما يفعل،فإن كان حبا للتدريس ففيم رفض التدريس لابن فلان من الوجوه على ما بذلوا له من مال وفير؟،وإن كان حبا للمال ففيما خطبه التى يحارب بها التقرب للأولياء وتقديم النذور ورفعه صندوق النذور من مسجده،وقد كانت له من ذلك حصيلة طيبة إن شاء؟

لم يرد الشيخ البخارى على من اعترضوا على ما يفعله ردا نظريا،بل جعله عمليا مفحما،أرسل إلى من اعترض عليه أن يأتيه فى صلاة العصر،ويحضر الرجل وقد عقد مجلس الدرس بجوار عمود المسجد،ويستمهله الشيخ قليلا ريثما يفرغ له،ويتابع الدرس،وكان موضوعه تفسير سورة الضحى،ويتلو الصبى نظمى السورة بلسان قويم،وإيقاع سليم،ويختمها بصدق الله العظيم،ثم يشرع فى تبيين معانيها،مستشهدا بسيرة الرسول الكريم،والشيخ يناقشه حينا،ويوجهه حينا آخر،ويستوضحه حينا ثالثا،حتى إذا بلغ الموضوع غايته،وجه الشيخ الكلام إلى صاحبه الزائر قائلا:كيف بنوك يا فلان؟فيرد:بخير يا مولانا،فقال الشيخ:تعرفنى يا فلان أمقت تقبيل الأيدى وأخذل عنه الناس،أعرفت فيما أرسلت إليك؟..فأطرق الرجل وقال:عرفت يا مولانا...وانصرف الرجل عن المجلس.

كان والد نظمى لوقا شديد الولوع بالفصاحة والفصحاء،اتفق له شئ من قرض الشعر فى صدر شبابه،وآمن أن ولده البكر ينبغى أن يصيب من ينابيع الضاد وبلاغتها أكبر حظ مستطاع،ورأى هزال ما يتاح لطلاب المدارس من ذلك،فعهد بولده إلى الشيخ البخارى الذى التقى به فى دكان الحلاق فبهرته منه شخصية

مشرقة،وذهن رحب،وسماحة ما كان يتوقعها فى أحد الشيوخ،فقد سمعه يستشهد أمامه بآيات من الإنجيل،وهو فى حدية الدارج مع الناس من حوله لا يحيد عن الفصيح والجزل من التراكيب،فكأنما خرج الشيخ لتوه من سوق عكاظ.

من هذا تحديدا يبدو حجم التأثير الذى مارسه الشيخ البخارى على الفتى نظمى،فهو لم يأخذ عنه فصاحته وبلاغته فقط،ولكنه أخذ عنه تسامحه أيضا،ولم يتوقف نظمى عند تجاور محمد والمسيح فى قلب الشيخ البخارى،ولكنه أضاف إليهما كل أصحاب الديانات على وجه الأرض.

لقد كاد الشيخ البخارى أن يعتذر عن التدريس لنظمى،لولا أن والده أقنعه بطريقته،فقد قال: له أنه أقرأه كليلة ودمنة قبل أن تسمح له سنه بدخول الدراسة الإبتدائية،وأن الفتى وهو أصغر طلاب مدرسته سنا وأقصرهم قامة،وجد نفسه فى مؤخرة صفوف الفصل فى أول يوم،فرفع يده وقال للمعلم بلغة فصيحة:أريد أن أجلس بجوار السبورة،فضج التلاميذ بالضحك،وقال المعلم ضاحكا:لك ذلك أيها الفيلسوف العجر.

وقبل أن يستوعب الشيخ ما جرى قال له الوالد:إن ولدى يشتهى أن يقوم لسانه بالقرآن،وتتهذب نفسه بالمعلقات وعين الشعر،فأخذت الشيخ هزة وقال:أما وأنت لا تريدنى على تدريس تلك المناهج السقيمة والخوض إلى تلك المدارك الضحلة،فهذا مطلب تطيب به نفسى،وينشرح له فؤادى،ولما سأله الوالد عن الأجر،قال له الشيخ:أمره لك،وأكبر جزائى أن تزهر للعربية شجرة مثمرة فى قلب فتى أريب،فى زمن أوشك اللسان العربى القويم فيه أن يعز وجوده كالكبريت الأحمر.

وعندما جلس نظمى لوقا إلى الشيخ البخارى،وجد فيه وهو الشيخ الكفيف

خزانة أدب وعلم وفقه وفلسفة وخلق،كان الشيخ يحفظ أشهر دواوين العرب وعيون الخطب،وكان التعليم بالضرورة شفويا،ولابد فيه من ضبط مخارج الحروف،وإقامة النحو وتجنب اللحن وتوخى الجزالة،فتعلم نظمى أن يتكلم وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح.

بدأ نظمى يتلقى دروسه فى حفظ القرآن،كان يقف عند كل آية،ويملى عليه الشيخ موجزا لتفسيرها ثم يملى عليه ما يتطرق إليه ذهنه الخصب بصددها من الأمثال السائرة والشعر المشهور،فتعلم الفتى كيف يربط المعنى اللغوى بالصورة الجمالية والذوق الأدبى.

وعندما اجتاز نظمى امتحان نصف العام أتى شيخه فرحا مرحا،وجعل موضوع الدرس فى ذلك اليوم بيتا من الشعر الحكيم،ثم آية من القرآن الكريم،أما البيت فهو :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

وأما الآية فهى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾.. وكان على نظمى أن يعالج الموضوعين بلسانه،والشيخ يستدرجه ويحاوره على سنة سقراط ،إلى أن وصل إلى غايته من تصغير الغرور إليه.

ومن المواقف التى صاغ الشيخ البخارى من خلالها تلميذه،أنه جاءه ذات يوم وقد دعاه أستاذه فإلى السنة النهائية وطلب إليه أن يصحح – وهو التلميذ بالسنة الأولى – خطأ طالب طال شاربه وأوتى بسطة فى الجسم،بعد أن عجز كل تلاميذ الفرقة النهائية عن ذلك التصويب،فأجاب بداهة،وأمر الأستاذ التلاميذ جميع أن ينهضوا واقفين ويحيوه تحية التعظيم،ففعلوا صاغرين،حتى إذا انقضى اليوم الدراسى تربصوا له بالباب وأحاطوا به وخطفوا طربوشه وجعلوا يتناقلونه بالأرجل وصبوا على الصغير سخريتهم وآذوه باللفظ واليد،حتى تمزقت ملابسه

واحمر قفاه،ولولا أنفته الشديدة لفاضت عيناه.

عالج الشيخ تلميذه بطريقة عملية،ويصف نظمى الوقف بقوله:«عض الشيخ على نواجذه ثم قال:الموضوع الذى سنجعله مدار حديثنا اليوم هو آية الفضل أن تعادى وتحسد،و:كل العداوات قد ترجى إزالتها إلا عداوة من عاداك عن حسد،وتشعب الحديث وتطرق إلى فنون من الفكر والشعر،حتى إذا انتهينا إلى قول أبى الطيب المتنبى:وإذا أتتك مذمتى من ناقص/ فهى الشهادة لى بأنى كامل».

استشعر نظمى لوقا العزة بعد الذل،والكرامة بعد الهوان،ولما آنس منه شيخه أن جرح كرامته قد التأم،انتقل إلى جرح من نوع آخر،إلى جرح آخر أحدثه الحقد،ونزعة فطرية إلى الثأر،فقال لنظمى:أريد أن تعد لمجلس الغد قول أبى الطيب:وأتعب من ناداك من لا تجيبه/ وأغيظ من عاداك من لا تشاكل،وأيضا قول المسيح عليه السلام:أبت.سأغفر لهم فإنهم لا يدرون ما يفعلون.

كان طبيعيا أن يكون الشيخ هو ملاذ نظمى فى كل ملمة تلم به،ونبراسه فى كل مدلهمة،وقدوته التى يأتم بها عقلا وقلبا وعاطفة وضميرا،لقد أصبح الشيخ القزم عملاقا،وسكن إليه نظمى واطمأن،وأخذ نفسه بأدبه وفضله،أمره الأمر،ورأيه الرأى،وذات يوم أتى غلام صغير إلى المسجد يلتمس الشيخ،فعرف نظمى أنه خادم أستاذه فقال له:الولد حضر يا مولانا،الولد خادمك،فأشاح بعنقه كعادته حين يضيق بشئ سمعه،وأدنى الغلام برهة ثم انصرف،وعندئذ قال الشيخ:ما هكذا يكون أدب السادة أيها السيد،كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: فتاى وفتاتى ولا يقول عبدى وأمتى،وانطلق يوبخه بما كان للرسول وصحابته من أدب رفيع فى معاملة خدمهم،ثم قال فى حزم:أرجو أن تفكر حتى غد،وعندما تخلو إلى نفسك فى المخدع،ماذا لو كنت مكان أحد ممن تسميهم خدما؟فإنه مثلنا ابن أب وأم،والدهر

الذى جار عليه جار على سائرنا،وأحب أن تفكر فى قول الشاعر:إذا ما الدهر جاد على أناس/ كلا كله أناخ بآخرينا.

قضى نظمى ليلته مؤرقا وقد تصور أباه هلك كما يهلك كل حى،وتصور نفسه يتلقى الركل والسباب والإهانة خادما فى بيت كبيته هذا،وطار قلبه،وما استيقظ حتى تعمد أن يكون بالخادم فى بيته رفيقا رقيقا،ولما رأى أمه تسبه وهى تتعجله قضاء حاجة ثار بها،وأسمعها طرفا مما وعاه من آداب الرسول وصحابته فى هذا السبيل،فاحتقن وجهها وأتت أباه فأخبرته،ووعدها أن يكون له مع الشيخ البخارى حديث فى هذا الأمر.

وعندما حل العصر قال الوالد للفتى: أنه لا درس اليوم،وذهب الوالد إلى الشيخ وتحدث معه فيما جرى فقال له الشيخ:هل ترضى أن آخذ ولدك بغير الأدب الأكمل والنهج الأقوم وأن أعرف الحق وأحيد عنه،فرد الوالد:بل لا أريد،فاستدرك الشيخ:وإن أردت أنت فإنى لا أريد؛ لأن ذلك هو الغش البين،فهل تراك أخذت على الدهر ميثاقا وقد عجز عن ذلك الملوك والسلاطين وأصحاب الملايين من قبلك،فرد الوالد:ولكن يا مولانا الله رفع الناس بعضهم فوق بعض درجات، فأكمل الشيخ رأيه ورؤيته،ويداول الدنيا بين الناس،ثم أما قرأت كتابك؟ألم تجد فيه أن المسيح عليه السلام ورأيكم فيه ما تعلم أنه غسل أقدام حوارييه،آداب الرسل ليس فيها تفاوت،وإنما التفاوت عندنا حين نفرط فى لباب الدين لنتسلق بزخارف الدنيا.

أعاد الوالد على أم نظمى حديث الشيخ،وآذنها أن يستأنف الولد الدرس من الغد عند الشيخ،فما كان ليحبسه عن رزق من الحكمة الرفيعة أتاحه الله له فى صورة هذا الشيخ،قال لها:وإنى لأستحى والله أن يظن الشيخ بنا دون هذه الآداب.

وحتى يحدث الأب والأم توازنا ما من وجهة نظرهما فى شخصية الفتى،فقد بدأ يقرآن له فصولا من الإنجيل كل يوم،ويرسلانه إلى الكنيسة يوم الجمعة،وجعلت أسرار العقيدة تصب فى دماغه صبا،فاستعصى منها على ذهنه ما استعصى وناقش فقيل له:إن الإمعان فى التفكير يسوق إلى الكفر،وأن المنافشة سبيل الشك،ومن دخل الشك قلبه فارقته نعمة الإيمان،وبغير نعمة الإيمان يهلك المرء ولا يدخل ملكوت السماء.

لم يجد نظمى لوقا أمامه إلا شيخه يلتمس منه الهداية،فتحرج الشيخ أن يطرق الموضوع،لكنه أخذ يحدثه عن العقل،وأنه الإمام الذى أنعم الله به عليه،وأن الدين المتين يقوى بالتفكير والتعقل،وأن اليقين الذى لا يصمد للشك يقين زائف،والمطمئن إليه مخدوع كمن يشيد بيته على الرمال،وحدثه الشيخ فى ذلك اليوم عن رجل سمع به حينئذ لأول مرة،وكان لاسمه ونهجه أثر حاسم فى حياته من بعد.

حدثه الشيخ البخارى عن غاندى وكيف كان يصلى بآى من القرآن والإنجيل والتوارة والبرهما بوترا،وحدثه عن متصوفة الإسلام،وعن محيى الدين بن عربى،وكيف أن لباب الدين كله واحد عند من ينفذون إلى الجوهر وينبذون القشور.

قال له:اقرأ يا بنى كتابك بنفسك،واحتكم إلى عقلك،واعلم أن كل دين ينهى عن قالة السوء،وعن فعل السوء،وعن تفكير السوء.

سمع نظمى بعد ذلك واعظا مشهورا حضر إلى المدينة، واحتشد القبط لسماعه احتشادا مشهودا،فإذا بعظاته كلها تنديد بطائفة البروتستنت،سماهم الذئاب الخاطفة،وحض على اختصامهم،فلا يحل لقبطى أن يصافح منهم أحدا أو يرد عليه

السلام،تصور نظمى أن البروتستنت ذوى أنياب كاشرة،ومخالب كاسرة،وذهب إلى الشيخ البخارى بذلك الحديث وهو مفزوع،فاغتم الشيخ وقال:أواثق أنت مما سمعت يا بنى؟،فلما قال له :كل الثقة يا مولانا،رد عليه:أعوذ بالله،إن مسيح هذا الواعظ ليس مسيح الناصرة ولا مراء،فالمسيح الناصرى يقول:أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم،كبرت كلمة تخرج من أفواههم، اقرأ إنجيلك يا بنى وافتح له بصيرتك،واصدد عن مفسرى السوء ما استطعت...ووعى نظمى لوقا الدرس جيدا،وكانت أن قسمت له الأقدار أن يتزوج بعد عقد ونصف من هذه الواقعة من إحدى بنات الذئاب الخاطفة،وهى الدكتورة صوفى عبد الله.

حفظ نظمى لوقا القرآن وهو ابن تسع سنوات فقط،ووعى المعلقات وديوان الحماسة،وقرأ اللزوميات،وافتتن بأبى العلاء والمتنبى على وجه الخصوص، وأصبحت سيرة الرسول والخلفاء الراشدين آلف لديه من عشرائه،يكاد يقدس ابن الخطاب وابن أبى طالب،والشيخ من وراء ذلك أعز عليه من أهل الدنيا جميعا.

ثم كان لابد أن تكتمل الملحمة – ملحمة حب نظمى للشيخ البخارى – أصيب شقيق نظمى فى مهده بمرض طويل أكل علاجه الأخضر واليابس،ثم مات فركب الأسرة دين،وسافرت الأم – وهى حامل فى شهرها الثامن إلى القاهرة تطلب من أمها الثرية حفيدة القسوس جزءا من حقها القانونى فى وقف جدتها،وكانت أم نظمى وحيدة أمها،ولبثت الأم فى سفرها ثلاثة أيام أحس نظمى فيها بالوحشة،ثم عادت الأم من سفرها خالية الوفاض دامعة العين،وقد أبت عليها أمها الثرية حقها،وهى بين الثكل والحمل والحاجة مهيضة الجناح مضعضعة النفس.

قررت الأسرة أن تضغط المصروفات كلها لمواجهة الأزمة،فانتقلت إلى بيت أرخص أجرا،وقطعت تيار الكهرباء واستغنت عن الخادم والغاسلة،وأقبلت الأم

الحبلى تعمل بيديها كل شئ حتى الخبز،فحز ذلك فى نفس نظمى الذى يكاد يعبد أمه من دون الله.

وتقرر فيما تقرر الاستغناء عن الدرس،وكان الشيخ قد عرف طرفا من ذلك الحديث الذى لم يكن يطوى عنه أشجانه،فإذا به يسكت عندما فاتحه الوالد فى انقطاع ابنه،وينصرف الإبن إلى داره،وإذا بالباب يطرق بعد قليل،وإذا بالشيخ الضرير يقوده صبى الحلاق،ويبادر الوالد قائلا:ما أظنك تأبى أن أكون أنا ضيفك كل يوم ساعة أو نحوها.

عرف نظمى أن الشيخ عازم على أن يستمر الدرس بغير مقابل،وأن تلطفه شاء له أن يكون هو الساعى إلى تلميذه صونا لعزته وزيادة فى مروءته،ولم يسع نظمى إلا أن يقارن فى نفسه بين فعل جدته التى تنتمى للمسيح وتتشدق بإسمه،وبين فعل شيخ يصلى بالناس على محمد وآله خمس مرات كل يوم،ليس البر إذن وقفا على دين دون دين.

(٢)

إننى لا أستطيع أن أشكك فى نوايا الشيخ البخارى،الذى رفض التدريس لعدد كبير من أبناء المسلمين،ورضى عن رضا وقناعة أن يدرس لنظمى لوقا وهو الطفل المسيحى،وقد يقول: أن الفتى كان ذكيا ونابغة،وهو كلام مردود عليه بأنه حتما كان من بين أبناء المسلمين من يفوقون نظمى ذكاء،أو على الأقل يمكن أن يضاهونه دون زيادة أو نقصان،لكن الشيخ اختاره هو،وعندما عرف أن ظرفا ماديا يمكن أن يحول بين الفتى وبين انتظامه فى الدرس،بادر بنفسه ليقدم جهده متطوعا دون مقابل.

هل كان فى نفس الشيخ البخارى شيئا لا يعرفه أحد؟

لقد علمتنى التجارب أن أحكم على الناس بأفعالهم وليس بنواياه،فالنوايا يعلمها الله وحده،وهو المطلع على السرائر،لكن حرص الشيخ البخارى على أن يتقاطع مع عائلة نظمى المسيحية، يؤكد أن الرجل كان يمارس دوره فى الدعوة إلى الإسلام،وحتما كانت سعادته ستكتمل لو أسلم نظمى ومن وراءه عائلته،لكن ذلك لم يحدث،فقد رحل نظمى عن مدينة السويس وعمره عشر سنوات،حاملا على كتفيه آثار الشيخ البخارى،وهى الآثار التى اعتقد أنه لولاها لما أخرج لنا نظمى إسلامياته الكثيرة،ولما فكر فى أن يصدر موسوعته الإسلامية الكبرى،التى مات دون أن يكملها.

(٣)

ومن هنا تحديدا دخل له القمص سرجيوس الذى رد على كتابه «محمد الرسالة والرسول » فى كتاب كامل،أعتقد أنه من المهم هنا أن نقدم لأهم ما جاء فيه،على الأقل من باب الموضوعية،ولتكتمل الصورة أمامنا جميعا.

بدأ سرجيوس رده بفصل عنوانه «نظمى فى حضن شيخ الجامع»،يقول:لم يدهشنا أن مسيحيا يكتب عن محمد،كما لم ندهش لمسلك كالأستاذ عباس العقاد يكتب عن المسيح؛لأن من حق الناس أن يبحثوا كل رسالة لرسول يدعوهم لإعتناقها،وإذا كنا قد تصدينا لكتاب العقاد،فقد كان التصدى لعنونته كتابه «عبقرية المسيح»،والسيد المسيح هو ابن الله النازل من السماء وقد حبل به من الروح القدس،كما يقول الإنجيل والقرآن،وله السلطان على إخراج الشياطين،ومن ثم فسموه الفائق ليس عبقرية،إنما هو لاهوت متجسد».

ويفصل سرجيوس أسباب تعرضه لكتاب نظمى،وذاك لأنه:

أولا:بقى مسيحيا بعد أن آمن بمحمد وديانته واعترف بأنها الديانة التى جاءت لتصحيح أخطاء أهل الكتاب،وأنها إلى آخر ما وصفها من الأوصاف المتناهية

السمو والكمال،وبعد أن جعل من الديانة المسيحية مطرحا لكل زبالة أفكاره،فقال أنه لم يبق فيها إلا الذين لم يتطوروا،وأنها عجزت عن أن تلاحق تطور البشر ومستويات إدراكهم ووعيهم العمرانى،فهل تراه فى شك مما كتب،فيتوقع منا ردا يقنعه بفساد رأيه فيظل قابعا فى مسيحيته.

ثانيا: بلغ به غروره حدا توهم معه أن المسيحيين يعجزون عن الرد عليه،فيندفع إلى اعتناق الإسلام فى زفة مقطوعة النظير،تطوف الشوارع،وربما بلاد القطر باعتباره بطلا من أبطال التاريخ،استطاع بجرة قلمه أن يحطم صخر المسيحية التى تحطمت عليها جميع قوات الجحيم.

ثالثا: قد يكون نظمى لوقا متترسا فى مقعده من المسيحية ليكون البرهان أقوى البرهان ضد المسيحية،ولصالح الإسلام،على قاعدة «وشهد شاهد من أهلها»،الأمر الذى كشفه الأستاذ أمين الخولى فى تقريظه – مدحه للكتاب – إذ قال:«فإنه وهو القبطى الصليبة يملك من أمر تلك النفس ما يستطيع معه أن يكتب عن «محمد الرسول ورسالته».

رابعا: لقد كتب نظمى لوقا عن محمد على حساب المسيح،بينما كتب الكتاب المسلمون ولكن ليس على حساب دينهم،بل كانوا إذا ما اضطروا إلى تدوين حقيقة عن المسيح لا يمكن إنكارها،كانوا يكتبونها فى لباقة وخفة يد بحيث يتحاشون الاصطدام مع دينهم وكتابهم،وبحيث لا يشعر القارئ أنهم هربوا أو تحاشوا عن الاصطدام.

خامسا: خيل للدكتور نظمى المسيحى الصليبة كما يصف نفسه أن يذيب المسيحية،ويجعل منها مدادا يصوغ به عقود مدح لمحمد ودينه،الأمر الذى لحظه قارئو كتابه فقالوا:«إنه مسلم أكثر من المسلمين ومحمدى أكثر من محمد».

فقال فى صفحة ١٣٤:«إن أهل الذكر هم من يذكرون الله ويصدقون

ويتقون»،وهذا التفسير يخالف تفسير أئمة الدين الإسلامى،وفى مقدمتهم الإمام البيضاوى الذى فسرها بقوله:«أهل الذكر هم أهل الكتاب أو علماء الأحبار»،بل يخالف نص القرآن الصريح:﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾،كما يخالف سياق الكلام،وهذا التعسف من الدكتور نظمى المسيحى لأنه لا يريد أن يعترف بكتاب اليهود والنصارى وأهل الذكر،ومن هنا تأكد لقراء كتاب نظمى صدق القول المشهور:«المتعصب دخيل».

وينطلق القمص سرجيوس من أسبابه تلك إلى أن نظمى لوقا ليس دخيلا على الإسلام،بل هو كما يراع معجون بالإسلام عجنا،وهو بنفسه قد كشف عن حقيقة ولادته فى الإسلام،إذ قال فى الصفحة ٣٣ تحت عنوان «صبى فى المسجد»:«صبى قصير نحيل واسع العينين لم يتجاوز السادسة إلا قليلا يقطع الطريق جادا مسرعا بعد صلاة العصر بقليل إلى مسجد فى السويس ليرى الشيخ جالسا،ويبش الشيخ للقائه،ويتأبط الشيخ الكفيف ذراع الصبى إلى أن يدخل الشيخ وتلميذه من باب المسجد،ليبدأ درسهما اليومى من بعد صلاة العصر إلى العشاء.

وفى مدينة السويس يعرفون أن لهذا الموظف والد الصبى أرومة معرفة فى صناعة القسوس فكم له من جد من ذوى الطياليس السود والعمائم السود،فلا شك إذن فى قبطية هذا الصبى الذى يرونه كل يوم يؤم مسجدهم الحنيف مع الإمام العالم الشيخ،وأن الحيرة لتستبد بهم،ثم تأخذهم نافلة من الغيرة يتهامسون فيما بينهم ويتناجون،ومن أم منهم المسجد لصلاة المغرب رأى الشيخ ينفض يده من درس الفتى فى مؤخرة المسجد ويتقدم فيؤم المصلين،ثم يعود ليصل من الدرس ما انقطع».

ويعلق سرجيوس على ما اقتطعه من الكتاب بقوله:«هذا ما كتبه الدكتور نظمى بيده عن كيفية عجنه بالإسلام،وكيف لم يعجن بالإسلام عجنا وهو منذ نعومة أظفاره لم

يمكث فى حجر أمه ولا رضع من لبانها بقدر ما مكث فى حجر الشيخ وحضن الجامع ورضع من لبان تعاليمه،ولا تمتع بابتسامة والديه بقدر ما شبع من ابتسامات الشيخ منذ كان كالعجينة اللينة أو الشمع الطرى القابل للتشكيل،والطبع بأى طابع «والعلم فى الصغر كالنقش فى الحجر»،أو كما قال سليمان الحكيم:«رب الولد فى طريقه فمتى شاخ لا يحيد عنه»،ولا سيما وأن الشيخ قد اصطفاه دون صبيان المسلمين والمسيحيين،وخصص ذاته لتدريسه دون سواه،غير مبال بهمسات الناس ومجاهرتهم».

هذا التخصص والإنفراد – كما يذهب – سرجيوس – مكن الشيخ من أن يصب العلم فى الصبى صبا،فجعله يحفظ القرآن ويجوده بأقوم لسان فى السن التى يكون فيها لسان الصبى مائعا لا يضبط اللفظ تماما،ولا سيما لفظ القرآن،وهو الأمر الخارق للعادة،وكيف لا يكون خارقا أن صبيا فى السادسة من عمره يستطيع بعد التلاوة مباشرة أن يبين معانى السورة،والشيخ يناقشه،ويقلبه على كل الوجوه،الأمر الذى لم يسمع عنه فى العالم الإسلامى،لا فى أولاد الصحابة ولا المقربين،أن تمتع صبى منهم بمثل ما تمتع وامتاز الصبى نظمى من ذكاء وحظوة.

ويتساءل سرجيوس:فهل يستغرب من صبى هذه نشأته وهذه عجينته أن يتهجم على المسيحية بهذا القلم المغموس فى دواة صب فيها ما صب فى طفل كان يعيش ذاك الوقت فى العقل الباطن وراحت تلاحقه فى هذه السن الصدمات النفسية.

ويستدل سرجيوس بالكراهية التى يكنها نظمى للمسيحية على أن ما فعله الدكتور المسيحى لم يكن إلا مكيدة للمسيحية وبغضا لها،يقول عنه:«تكاملت فى أضلاع نظمى ناران،نار الحب التى أشعلها الشيخ فى قلب الصبى بتعليمه،ونار الكره للمسيحية التى أضرمتها جدته فى قلبه بقساوتها،وكل هذا كان له أثره الفعال فى نفسه فى حال طفولتها،فإذا قيل عن البعض أنهم يعيشون فى دور الطفولة،فذلك لأنهم صدمو

بصدمات شديدة فى طفولتهم كالصدمات التى صدم بها الطفل أو الصبى نظمى،فعاش متأثرا بما لاقته أمه من قسوة وما لاقاه له من ضيق وفقر ومرارة،تتفاعل فيه تلك العوامل كلها،عوامل الحب للشيخ وعوامل البغضة لجدته ودين جدته.

لم تقف الصدمات النفسية التى واجهها نظمى - كما يرى سرجيوس – عند حد بل جاءت الصدمة تلو الصدمة،وعندما تتجمع هذه الصدمات وتلتف حول رقبة الطفل،كما يلتف حبل المشنقة،إذا بالشيخ يقبل مسرعا ليرفع حبل المشنقة عن الصبى ،وقد تكرر هذا كثيرا،عندما سخر منه زملاؤه،وعندما ضاقت الأحوال بالأسرة فذهب إليها متطوعا ومعاونا.

ويدخل سرجيوس إلى مساحة جديدة يشير من خلالها إلى أن نظمى كان مغرضا فيما كتبه عن الإسلام،وأنه ما كتب ليدافع عن رسوله،ولكنه كتب ليصب حمم كراهيته للمسيحية،يقول:« كنا نود ألا نتعرض للدفاع عن جدة نظمى،لولا أنه جعل منها ومن شيخه مقارنة بين الإسلام والمسيحية،وأراد أن يبين قسوة المسيحية وتأثيرها فى أتباعها،وحنان الإسلام وعطفه وتأثيره فى أتباعه من الجهة الأخرى،وكان له أن يمتدح الشيخ ودينه ما شاء له المدح،دون التعريض بالمسيحية،أما وأنه مغلوب من عادته،وعاداته ألا يمتدح محمدا والإسلام إلا على أساس التشنيع على المسيح والمسيحية،لذلك أهمس فى أذن نظمى،هل تظن أن قساوة جدتك عليك وعلى أمك إلى هذا الحد كان بسبب كونها مسيحية؟.

ويجيب سرجيوس:«أم لأن همس أهل السويس الذين كانوا يتهامسونه عندما يرونك كل يوم مع الشيخ داخل الجامع،دون جميع صبيان السويس،قد بلغ بصوت مكبر إلى جدتك فى القاهرة،وقيل لها:أن حفيدك قد سلمه أبواه إلى شيخ جامع بالسويس،وهو فى السادسة من عمره ليرضعه لبن التعليم الإسلامى،وإن حفيدك

صار موضوع حديث الناس وتساؤلهم ودهشتهم،فلو كنت أنت حفيد الشيخ نفسه وسلمتك أمك ليد قسيس داخل كنيسة ليعلمك الديانة المسيحية،وأصاب أمك من الضيق المالى ما أصابها،وذهبت إلى أمها زوجة الشيخ المسلم تطلب مساعدة مالية أو كسرة خبز،فهل كان شيخك العملاق يقدم لها هذه المساعدة،أو كان على العكس من ذلك يرجمها ويحرقها لأنه يعتبرها مرتدة عن الإسلام...إذن لم تكن جدتك قاسية فى جانب أمك بل غضت الطرف عنها معتبرة إياها كما اعتبرتها».

يمسك سرجيوس بعد ذلك بما قاله نظمى فى مقدمة كتابه،من أنه ليس ينكر أن بواعث كثيرة فى صباه قربت بينه وبين هذا الرسول – يقصد النبى محمد صلى الله عليه وسلم – وليس فى نيته أن ينكر هذا الحب أو يتنكر له،بل إنه يشرف به ويحمد له بوادره وعقباه،ليدلل على أن نظمى ليس مسيحيا ولكنه معجون بالإسلام عجنا.

لا يتعرض سرجيوس لنظمى لوقا شخصيا بعد ذلك،بل يتفرغ على طول وعرض ١٣٠ صفحة من الكتاب،للرد على أفكار نظمى،فيما قاله عن الإسلام،وفيه محاولة لدحض كل ما قاله نظمى،ولأننى لست بصدد عقد مبارزة فكرية بين نظمى وسرجيوس،فإننى سأكتفى ببعض ما كتبه ردا على نظمى،وليكن معنا منها عشر نقاط محددة.

أولا:كتب نظمى فى كتابه:«وقف الفتى الذى درج إلى الشباب وقفة لم يكن منها مناص:إن تكن هذه الأديان صحيحة،فبأى مقياس يمكن الطعن فى صدق رسالة محمد».

وعن ذلك يقول سرجيوس:« حق ما قيل:إن أول القصيدة كفر،وقد انطبق هذا على الدكتور نظمى الذى تنطع للدفاع عن الإسلام،فأكرهه الحق الإلهى على أن يتكشف ويكشف أوراقه من أول لحظة،وفى أول خطوة يخطوها فى سبيل الدفاع عن الإسلام

فإذا بجعبته لا تحتوى إلا على أسلحة هى السخف بعينه،وبما أن السخف لا يعالج إلا بالسخف،فضع أمام نظمى لوقا سخافة ونطالبه بمثل ما طالبنا به فنقول له:إن تكن الأديان الثلاثة – اليهودية والمسيحية والإسلامية – صحيحة فبأى حجة وبأى مقياس يمكن الطعن فى صدق رسالة محمد على ميرزا الزعيم الدينى البهائى؟

فهل يسلم الدكتور نظمى بهذا التحدى ويعترف بصدق رسالة زعيم البهائيين؟أم يقول إن هذا تحد باطل وسخيف،فإن اعترف بزعيم البهائيين بناء على هذا المبدأ الفاسد الذى وضعه هنا فى صورة تحد،كان له من حكم محكمة القضاء الإدارى الذى أصدرته على الطالب النهائى بحرمانه من الجنسية المصرية ونشرته فى أهرام ٣١ أكتوبر ١٩٥٩ خير الجزاء».

ثانيا:كتب نظمى فى كتابه:«الآية الكبرى التى لا يثبت بغيرها صدق ولا يغنى عن غيابها ألف دليل مغاير،مهما بلغت درجته من الإعجاز،هى صدق الكلمة من حيث هى،فإن آية الحقيقة نفسها تحمل برهانها فى مضمونها فيطمئن إليها العقل ويبدو هزيلا واضح البطلان».

وكتب أيضا : « إن أول مقياس يقاس به صدق صاحب الرسالة هو مبلغ إيمانه بها» اعتبر سرجسوس أن هذان مقياسان نسجهما نظمى،وكان رده عليه كالتالى:« فى المقياس الأول جعل نظمى صدق رسالة الرسول متضمنا فى ذات الرسالة ، والرسالة هى التى تحمل برهانها فى مضمونها،وهى وحدها آية نفسها، وفى المقياس الثانى جعل صدق الرسالة قائما ومحمولا ومتضمنا فى ذات الرسول وهو إيمان الرسول برسالته،وشتان بين أن يكون صدق الرسول متضمنا فى ذاتها،وأن يكون متضمنا فى إيمان الرسول الذى يحملها.

فى المقياس الأول يجل الرسالة قادرة على إثبات صدقها،بدون حضور الرسول

لأنها ليست بحاجة إلى دليل خارجى إذ تحمل دليل صدقها فى مضمونها،وإن كل الأجيال تدرك صدقها فى غياب الرسول وغياب المعجزات،وفى المقياس الثانى يجعل الرسالة عاجزة عن إثبات صدقها،إلا إذا كان الرسول الذى يحملها أمام الناس ليروا مقدار إيمانه برسالته.

فى المقياس الأول قطع خط الرجعة على المقياس الثانى،إذا قال : أن اللآية الكبرى التى لا يثبت بغيرها صدق ولا يغنى عن غيابها ألف دليل مغاير،مهما بلغت درجته من الإعجاز،وفى المقياس الثانى يقول:إن أول مقياس يقاس به صدق صاحب الرسالة هو مبلغ إيمانه بها،وكلا المقياسين باطل».

ثالثا: يقول نظمى فى كتابه:«إن السلعة الأصلية هى التى تؤدى للناس ما لا تؤديه سلعة أخرى،وإن كانت تشبهها فى بعض الوجوه وليست تقليدا أو تزييفا لسلعة سابقة عليها بحيث يكون غيابها نقصا واضحا لا محل فيه للإنكار».

ويرد سرجيوس بأن نظمى لوقا بهذا التشبيه يكشف عن ناحية أخرى من أسباب تهجمه وطعنه فى دينه المسيحى،غير ما ذكر من تسليم أبويه إياه إلى شيخ جامع السويس منذ نعومة أظفاره،وقساوة جدته على أمه التى عادت من عندها مهيضة الجناح مضعضعة،فقد كشف بهذا التشبيه عن اعتباره للأديان ولاعقائد أنها كالسلع تباع وتشترى،وأنها قابلة للمساومة،والعرض والطلب،وزيادة الربح وانتهاز الفرص والظروف الملائمة،وتطبيق قواعد »اللى تغلب به العبه.

ولا يمكن أن يكون نظمى قال هذا القول بدون وعى،فهو يكتب على المكشوف ويريك لأن هذا مبلغ الديانة والعقيدة عنده،وأنه على استعداد للمساومة،على دفاع آخر يقدمه لأى دين يطلب منه الدفاع عنه أو الطعن فيه،على شرط أن يفهم من يساومه أن الدين كالسلعة تباع وتشترى.

رابعا: ويذهب سرجيوس أنه إذا كان الدين لله وكما يقول الدكتور نظمى فى صفحة ٥١ من كتابه:«كذلك العقائد والأديان،كلها عقائد غيبية تحدد صلة الإنسان برب هذا الكون»..ومعلوم أن الذى يحدد هذه الصلة هو الله بما يوحى من شرائع يظهر فيها إرادته تعالى،وإرادته تعالى بصفته قدوسا رحيما،أن نكون مثله تعالى فى القداسة كما يقول بولس الرسول:«لأن هذه إرادة الله أن تقدسوا أنفسكم»..وقول السيد المسيح:«كونوا رحماء كما أن أباكم رحيم».

والقداسة والصلاح الأدبى هو صلاح فى ذاته لا بسبب ما يؤدى إليه،ولا بسبب موافقته للعقل،وإن كل ناموس مبنى على إرادة الله هو عبارة عن مطالب طبيعته تعالى،وطبيعته تعالى غير قابلة للتغير لأنه تعالى «ليس عنده تغير ولا ظل دوران»،وقد أعلن الله شريعته فى الطبيعة المادية وفى بنية الإنسان العقلية والأدبية،مكتوبة فى نسيج كياننا وخلايانا وأعصابنا ومجرى دمنا وحياتنا وهى الطريقة التى خلقنا لنعيش بها،وكما يصمم المهندس فى داخل الآية الميكانيكية طريقة عملها لكى تسير وتحفظ من العطب والتلف،هكذا اقتضت حكمة الله أن يطبع نواميسه داخل كياننا كما طبعه فى كيان جميع المخلوقات،وهذا عين ما قرره الرب يسوع بقوله:«ملكوت الله فى داخلكم».

وهذا هو عين ما عبر عنه الوحى الإلهى فى سفر التكوين بقوله:«وعمل الله الإنسان على صورته»،وبولس الرسول بقوله:«إن الأمم الذين ليس عندهم الناموس متى فعلوا بالطبيعة ما هو من الناموس،فهؤلاء إذ ليس لهم الناموس،هم ناموس لأنفسهم،يظهرون عمل الناموس مكتوبا فى قلوبهم،وضميرهم يشهد وأفكارهم أيضا مشتكية ومحتجة».

خامسا:وتحت عنوان «دين البشر»..وهو عنوان مأخوذ من كتاب نظمى،يقول

سرجيوس:«تحت هذا العنوان كتب الدكتور نظمى فى الصفحة ٦٩ يقول:«لم يزل الناس بحاجة إذن إلى عقيدة جديدة يجتمع إليها العقل والقلب جميعا،ينبغى أن يتجه الدين الجديد إلى الناس كافة،لا فرق فيهم بين شعب وشعب،ولا بين جيل وجيل،ولا بين طبقة وطبقة».

هذا ما يقوله الدكتور نظمى،وكأن المسيحية المنتشرة وقت مجئ محمد كانت ديانة بعيدة عن العقل،وكانت دين القلب فقط،فاستلزم أن يأتى الدين الإسلامى ليجمع العقل والقلب معا،ومعلوم أن القلب مركز الإيمان،فهو إذن يريد أن يقول أن الناس قبلوا المسيحية بالإيمان فقط دون أن يستعملوا العقل لبحثها وفهمها والحكم فيها،فهى والحالة هذه تكون ديانة السذج الذين لا يمكن التأثير فيهم بسهولة.

ويضيف سرجيوس:«ومعلوم أيضا للدكتور نظمى لوقا أن الديانة المسيحية لم تنشر لا بالإكراه؛لأن الذين نشروها كانوا من الضعفاء المزدرين صيادى سمك،ولا بالإغراء لأنهم كانوا فقراء لا يملكون ما يغرى الناس،ولا كانت تعاليمهم اباحية يجد الناس فيها إشباع الشهوات وإباحة المحظورات،بل بالعكس كانت تعاليمهم تنفر منها الطبيعة البشرية،إذ تأمرهم بانا كار الذات والتواضع وعدم الطمع،وأن يعطوا خدهم اليمين لمن يلطمهم على الشمال،ولا كانوا فلاسفة حتى يلعبوا بالعقول بل كانوا جهالا،ولا بالتهديد لأنهم ما كانوا يملكون سيفا ولا حربة،اذن بأية قوة انتشرت المسيحية فى أقطار العالم واعتنقها العالم والجاهل،الغنى والفقير،القوى والضعيف،أليس انتشارها يكون فى ذاته معجزة من المعجزات؟».

ويتساءل سرجيوس:«هل كان للعرب أفرادا وجماعات فرصة للبحث والجدل واستعمال العقل حتى بلغوا حد الاقتناع العقلى؟أم كان البرهان أصدق برهان هو السيف والقتال الذى كتب على كل مسلم،كما ورد فى سورة البقرة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ

ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾..و﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾..وفى سورة الأنفال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾..﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ﴾،وجاء فى حديث البخارى :قال محمد : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله،فهل كانت المسيحية دينا لشعب خاص أو بلد خاص،أو لغة خاصة حتى كان العالم بحاجة إلى ديانة غير ديانة المسيح،لكى تضم كل أمم العالم وقارات الدنيا».

ويوجه سرجيوس كلامه لنظمى لوقا مباشرة:«اسمع يا نظمى ما يقال فى الأمثلة العامة»الكتاب يعرف من عنوانه»،فعنوان الدين يعرف من اللغة التى ينشر بها،فاللغة التى جاء بها القرآن هى اللغة العربية فقط كما ورد فى سورة يوسف:﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾...فلو كان كما تقول دين البشر قاطبة لكان جاء على الأقل بأهم اللغات الشائعة،أو كان ترجم إلى اللغات الأخرى أو بعضها حتى يستطيع أهل العالم أن يفهموه ويعقلوه ويعتنقوه،بل وهناك مانع آخر غير مانع اللغة وهو أنه لا يسمح لغير المسلم أن يمس القرآن لأن :﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾.

ويكمل سرجيوس حديثه إلى نظمى:«أما المسيحية فقد بشر بها رسل المسيح بعد أن حل عليهم الروح القدس،بعد صعود المسيح بعشرة أيام فى يوم الخمسين،وخاطبوا الذين جاءوا إلى أرشليم من أقطار المسكونة من اليهود الذين اندهشوا عندما سمعوا أولئك الرسل الجليليين يتكلمون بلغات البلاد التى كانوا متغربين فيها،ثم إن فى العالم حوالى ألفى مليون نسمة ويزيد – وقت تأليف الكتاب فى نهاية خمسينات القرن العشرين – وعدد المسلمين فيه ٢٦٥ مليونا ويزيد،وعدد المسحيين ٨٠٠ مليون،وما يزيد على ألف مليون لا يزالون على الفطرة وبعضهم

يعتنق مبادئ عقلية وفلسفية أو عبادات كفرية أو صنمية،وها قد مضى على الإسلام ١٣٧٩ سنة،ولم يمتد الإسلام إلا إلى جزء من ثمانية من أهل العالم بينما بلعت المسيحية رغم مبادئها التى لسموها تنفر منها الطبيعة البشرية التى لم تنضج،بلغت ما يقرب من نصف البشر وآخذة فى الامتداد بواسطة المبشرين المنتشرين فى كل أقطار العالم يبشرون بلغات البشر جميعا ويقدمون لهم الإنجيل بجميع اللغات».

سادسا:ويأخذ سرجيوس على نظمى ما قاله فى كتابه من أن «نزول القرآن كان ليصحح عقائد أهل الكتاب»،ويقول فى الرد على ذلك:أى العقائد جاء القرآن ليصححها لهم؟هل عقيدتهم فى كتابهم؟أم عقيدة خرجوا بها عن حكم كتابهم،فإن قال عقيدتهم فى كتابهم يكون قد طعن فى ذات القرآن لأن القرآن جاء مصدقا لكتب اليهود والنصارى ومهيمنا عليها،وأمر محمدا أن يسأل أهل الكتاب ليزيلوا الشك من قلبه،من جهة ما أنزل إليه.

كما ينزل أيضا محرضا ومهددا:﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ...فلو أن كتب اليهود والنصارى محرفة ومبدلة،فكيف ينزل القرآن مصدقا على كتب محرفة ومغلوطة؟وكيف يحيل الله محمدا على أهل الكتاب يسألهم ليزيلوا الشك من قلبه؟وكيف يحض أهل الكتب على أن يقيموا التوراة والإنجيل؟بل وكيف يقول القرآن : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ ،فأين إذن الوعد الإلهى بحفظ الذكر إذا كان يترك الناس يعبثون بالذكر ويحرفونه؟وإذا سمح الله للناس أن يحرفوا الذكر الذى بين أيدى اليهود والنصارى فيسمح أيضا للذكر الآخر أن يعبث به الناس.

ويستدرك سرجيوس فى رؤيته:وإذا قال نظمى أن القرآن جاء ليصحح عقائد أهل الكتاب التى خرجوا بها عن كتابكم،نقول له:إن هذه المهمة لا تحتاج إلى دين

جديد بل إلى وعاظ ومصلحين ينادون الناس بالتوبة والرجوع إلى الحق،الرجوع إلى الشريعة كما كان يحدث قديما،فعندما كان يزيغ شعب إسرائيل عن الله ويحيدون عن وصاياه ويخالفون شريعته،كان يقوم بينهم أمثال إيليا وأشعياء وارميا ويوحنا المعمدان وينادون كما نادى إيليا قائلا للشعب الإسرائيلي:حتى متى تعرجون بين الجانبيين..إن كان الرب هو الله فاتبعوه وإن كان البعل فاتبعوه».

وكما يقوم الواعظون فى كل زمان ومكان بين اليهود والمسيحيين والمسلمين يعظون ويوبخون ويحثون الناس على التوبة والرجوع إلى الشريعة والتمسك بمبادئ الدين،دون أن يأتوهم بدين جديد وشرائع جديدة،وإلا لو كان كما يقول الدكتور نظمى : يقوم دين جديد لتصحيح الأخطاء،لامتلأ العالم من الأديان العديدة والأنبياء الكثيرين فيحار الناس وسط مئات الشرائع والنواميس وكثرة الأديان فتعم الفوضى ويكثر الأدعياء.

سابعا:لقد قام من بين المسيحيين فى القرون الأولى هراطقة ومبتدعون كثيرون كما قام من بينهم نظمى لوقا،لكن نظمى قال فى المسيح ما لم يقله غيره،فقد أنكر على المسيح ما اعترف له به الهراطقة من قبله – وهؤلاء حرمتهم الكنيسة جميعا- لقد قال نظمى فى كتابه:«فقد صار أتباع المسيح إلى القول بألوهيته وأنه ابن الله،ولم يرد على لسان المسيح فى أقواله الواردة فى بشارات حوترية (الأناجيل)إشارة إلى شئ من ذلك،بل كان يدعو نفسه على الدوام ابن الإنسان،وأما البنوة لله عز وجل فما ورد لها ذكر إلا على سبيل المجاز المطلق وبمعنى يشمل البشر كافة».

هذا ما قاله نظمى لوقا عن المسيح معتبرا إياه مجرد بشر وإن نسبته إلى الله كنسبة كل بشرى،وهو ما يعنى أنه كفر بلاهوت المسيح.

ثامنا:كتب الدكتور نظمى لوقا يندد بعقيدة التثليث والتوحيد فى صفحة ٧٣

يقول:إن القرآن جاء ليصحح عقائد أهل الكتاب الذين صاروا إلى القول أن الإله الواجد جوهر واحد،له ثلاثة أقانيم هى الله الأب – والله الابن – وهو المسيح – والروح القدس.

ويرد عليه سرجيوس بقوله:أما نحن فنسأل نظمى لوقا :أجهل منك أم تجاهل بالكتاب المقدس حتى تقول ذلك،إن أهل الكتاب لا ذنب لهم فى هذا الاعتقاد،اللهم إلا إذا كان ذنبهم فى نظرك أنهم لا يخرجون عما جاء فى كتابهم،بل يعتقدون بما جاء فيه.

تاسعا:كتب الدكتور نظمى يقول:أما الإنسان فوقف بعد اليهودية والمسيحية موقفا لا ينحسد عليه كثيرا بسبب ما ألصق به من وزر أبيه الأول آدم،ذلك الوزر الذى اعتبر خطيئة أولى،خطيئة باقية موروثة لابد لها من كفارة وفداء حتى لا يذهب بجريرتها أبناء الجنس البشرى...فكان لابد من عقيدة ترفع عن كاهل البشر هذه اللعنة وتطمئنهم إلى العدالة التى لا تأخذ البرئ بالمجرم أو تزر الولد بوزر الوالد،وتجعل للبشرية كرامة مضمونة.

ويقول سرجيوس:من يطالع هذه الأقوال يقف حائرا لا يدرك ماذا يقصد نظمى بها،بل هو يعتقد بما جاء فى التوارة والإنجيل والقرآن والحديث عن خطيئة آدم وحواء ووقوعها فى العصيان،أم لا يعتقد؟وهل يعتقد بقصاص الخطيئة أم لا يعتقد؟وهل يعتقد بعذاب جهنم أو هو يهزأ به؟وهل يعتقد بلزوم الكفارة والفداء أو هو كافر به؟وهل هو جاد أم هازل؟

لقد كان نظمى يستطيع أن يكتب ويكتب والقراء يخرجون من وراء ما يكتب دون أن يقفوا على قصده،لولا أن زل قلمه الجموح فراح يهزأ بوصف جهنم،ويجعل منه بعبعا للأطفال ومثير لمخيلتهم،هذا الوصف الذى أوقع الفزع والهول فى نفسه

الصغيرة لا ينساه إلى اليوم،وصف جهنم وكيف تتجدد فيها الجلود كلما أكلتها النيران جزاء وفاقا على خطئية آدم بإيعاز من حواء.

كتب نظمى هذا وهو يدرى أو لا يدرى أن وصف جهنم هذا لم يرد فى توارة اليهود ولا فى إنجيل المسيحيين،وإنما هو وارد فى القرآن فى سورة النساء حيث قيل: ﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ ،﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.

عاشرا:تحدث نظمى لوقا عن زواج المسلم بالكتابية وما قاله الإسلام فيه،وعن ذلك يقول سرجيوس:إذا كان القرآن يقول صريحا فى سورة البقرة:﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ﴾.

وإذا كان المسلم يتزوج بالكتابية – يهودية أو مسيحية – لكونها غير مشركة، والإسلام يعترف بدينها ولا يجحده،فلماذا لا يتزوج الكتابى بالمسلمة،كما تزوج المسلم بالكتابية أخت الكتابى؟،وما دام القرآن لم يحرم على المسلم والمسلمة إلا الزواج بالمشرك والمشركة،ولم يذكر القرآن السبب الذى يذكره نظمى إذ يقول:إن المسلمة غير آمنة على دينها فى كنف الكتابى،بل ذكر القرآن سببا واحدا فى عدم زواج المشرك والمشركة وهو أن المشركين يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة،والكتابيون يدعون إلى الجنة أيضا،إذن يظل السؤال قائما:لماذا لا يتزوج الكتابى بالمسلمة رغم أنف نظمى الذى يقول أن المسألة ليست عصبية أو تحيزا فى كثير أو قليل؟.

ويختم سرجيوس كلامه:فالمسلمون يا دكتور نظمى،يا الى أنت لسه مسيحى،حتى لا يزوجون بناتهم للكتابى لا يستندون إلى قرآنهم،أما المسيحيون

الذين لا يزوجون ولا يتزوجون بغير مسيحى أو مسيحية،فيستندون إلى كتابهم القائل:أن تتزوج فى الرب،كما أن عقد الزواج يعقد باسم المسيح والزواج المسيحى يمثل اتحاد المسيح بالكنيسة،كقول الرسول:إن الرجل رأس المرأة كما أن المسيح رأس الكنيسة،أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها،إن هذا هو السر العظيم،أقول ذلك بالنسبة إلى المسيح والكنيسة،وهذا لا يعترف به المسلم ولا يسلم به.

(٤)

إننا أمام وجهتى نظر،صاحب كل منهما وقع فى نفس الخطأ،فعندما كتب نظمى لوقا منصفا للإسلام والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم،وكما يرى سرجيوس،فإنه فعل ذلك على حساب المسيحية،حيث انتقص من قدرها،وهو نفس ما فعله سرجيوس فيما كتبه،فلم يدافع عن المسيحية إلا من باب الانتقاص من الإسلام والرسول الكريم،وكأنه لا يستقيم أمر الدفاع عن دين إلا بهدم الدين الآخر على رؤوس أصحابه،وسبه ولعنه.

لقد كان سرجيوس متجاوزا فيما قاله إلى قدر كبير،بل إنه تجاوز ما كان يقصده نظمى لوقا بمسافات بعيدة،ولذلك جاء هجومه فى معظم ما قاله متجنيا على الإسلام،إن ما قدمه نظمى كان محاولة للتأكيد على أن الأديان كلها من عند الله،وأن الإيمان فى أعلى درجاته،لا يتم إلا بأن يؤمن من يريد أن يؤمن بالأديان كلها،فهى مكملة لبعضها،دون أن ينتقص من أحدها شئ،فالأديان مكتملة فى السياق الذى نزلت فيه،أما عندما يتعداها السياق،،فإنها تكون فى حاجة إلى ديانة أخرى تتمم ما تجازوها الزمان فيه،لا أكثر ولا أقل.

لكنى أعتقد أن القمص سرجيوس الذى لم يتحرك للرد على نظمى لوقا من تلقاء

نفسه،بل أغلب الظن أنه كان مكلفا من الكنيسة بذلك،ولذلك فإن رده لم يكن لتفنيد ما قاله نظمى فيما يخص المسيحية والإسلام،ولكنه كان يقدم مذكرة تكفير نظمى لوقا،وتأكيد تهمة الهرطقة عليه،حتى عندما تأتى الكنيسة لتحرمه،أو تطرده من رحمتها وترفض الصلاة عليه بعد وفاته،فإنها تكون مستندة إلى وثيقة،كتبها رجل دين مسيحى.

(٥)

بعد حوالى ربع قرن من ظهور كتاب «محمد الرسالة والرسول»، وجد نظمى لوقا نفسه مضطرا لأن يصدر كتابا يوضح فيه حقيقة علاقته بالإسلام،بعد أن كانت هذه العلاقة مصدر لكثير من اللبس والإزعاج،وكان كتابه الذى يكمل به سلسلة إسلامياته،وهو «أنا والإسلام».

فى الفصل الأول من «محمد الرسالة والرسول» قدم نظمى ما يمكن أن نطلق عليه خيوط علاقته بالإسلام،وهى الخيوط التى جعلته يقدم على تقديم سلسلة من الإسلاميات بمنهج موضوعى قدر الإمكان،لكنه ورغم ذلك لم يسلم من الإتهامات التى لا حقته،ولا تزال،وأعتقد أن ذلك تحديدا هو ما جعله يختم كتابه أنا والإسلام بما يشبه البيان التوضيحى.

تحت عنوان :جائزة من نوع خاص،قال نظمى:«فى شهر مارس سنة ١٩٨٤ – بعد الفراغ من كتاب أنا والإسلام بشهرين – حدثنى مجهول من أبناء الحلال بالتليفون،مؤكدا أننى دسيسة نصرانية تحاك للإسلام،وكان عهدى على مدى ربع قرن باتهام أبناء الحلال من الفريق الآخر بأننى دسيسة إسلامية ضد المسيحية،وهكذا تمت لى كل أسباب الاستحقاق لجائزة من نوع خاص،هى جائزة أسوأ المفكرين المصريين سمعة عند الغوغاء كافة فى جميع المعسكرات والطوائف بلا استثناء.

والمسألة عند هؤلاء وأولئك بلا اختلاف هى العجز عن التفرقة الحاسمة بين

المجال الإيمانى المجال المعرفى الموضوعى،حتى عندما يتعلق الأمر بالعقائد،وكيف أنها من الناحية المعرفية الموضوعية ينبغى أن تكون موضوع إدراك،على نحو ما تدرك موضوعات علم النبات والكيمياء والفيزياء وما إليها،وهو نوع من الإدراك لا يجوز أن يختلف باختلاف الإنتماء الدينى لمن يدركونه بأمانة،ولكن الآفة عند هؤلاء وأولئك هى آفة سوء الظن الجامح،وقديما قيل:إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ودق ما يعتاده من توهم.

وعزائى الوحيد فى هذه المحنة الفذة أن هذه الآفة المتوارثة كان ينبغى أن ينبرى لها أحد،مضحيا بسمعته عند جماعة الغوغاء من كل قبيل،فكنت أنا هذا المتهور...والتوقيع على البيان نظمى لوقا من رقيق الأرض المتمردين على الأغلال».

على الصفحة الأولى من الكتاب إشارة واضحة إلى أنه من تأليف المفكر المسيحى الدكتور نظمى لوقا،فكأنه يعان عن هويته من اللحظة الأولى،والإهداء إلى السائرين فى الظلمة،ومن يلوح لهم من أنفسهم فجر جديد،وأيضا إلى ذلك الشاعر الذى قال:على نحت القوافى من مقاطعها.

وقبل أن يبدأ نظمى كتابه يكتب رسالة تحية إلى الأستاذ أحمد أمين (وهو أحد المفكرين الإسلاميين الكبار)،قال فيها:إلى الأستاذ أحمد أمين فى رحاب الله،فهو الذى مد يده إلى على غير سابق معرفة،عندما قرأ أول كتاب به بذرة مذهبى الفلسفى،وهو «الله فى نظر الناس وكما أراه»،المطبوع فى دمهنور فى مارس سنة ١٩٣٧،ولعلى لولا تشجيعه ما واصلت طريقى حتى أتممت مذهبى الفلسفى المستقل على مدى يزيد على أربعين سنة،ويكاد يقارب نصف القرن فى عدة كتب كمن يشق طريقه فى الصخر،تحية لروحه وأريحيته من الشاكر الذاكر نظمى لوقا صاحب الفلسفة التعبيرية».

يسأل نظمى لوقا:لماذا هذا الكتاب؟..وعبر ٤٤ صفحة يحاول أن يقدم إجابة

معقولة ومنطقية،يقول:«ما من شخص عرفته مسلما أو مسيحيا على مدى أكثر من ربع قرن إلا سألنى بكل الدهشة (باستياء أحيانا وبغير استياء أحيانا أخرى)...ماذا دفعنى للكتابة عن الإسلام،ما مادمت لست مسلما ولم أزل متمسكا بديانتى المسيحية؟.. وهذه هى إجابتى ..ولعلها تكفى لوقف تواتر هذا السؤال،أذكرها بكل الصراحة والأمانة».

لقد شغل نظمى لوقا نفسه ما بين سنتى ١٩٤٨ و١٩٥٩ بموضوع يتعلق بمحمد وما ترتب على دعوته ونضاله من آثار نفسية واجتماعية ومادية بعيدة المدى فى مصير الشرق خاصة،وفى تاريخ العالم بعامة،ولكنه لم يقدم على نشر كتابه الأول عنه وهو «محمد الرسالة والرسول»،إلا فى سنة ١٩٥٩،بعد طول تردد،فدواعى كتابته ونشره كانت أقوى من المحاذير الشخصية على هولها وجسامتها؛لأنه تبين له بعد طول تفكير وإمعان فى المراجعة أن هذه الكتابة فرض عين،أى واجب لا محيص له عنه.

وحتى تتضح وجوبية هذا الداعى للكتابة وحتمية الاستجابة له حتمية خلقية،كان لابد من الحديث عن علاقة نظمى وعلاقة ظروفه الخاصة والعامة،بما فى ذلك تكوينه النفسى بهذا الموضوع بالذات،ولذلك فهو يعترف أنه رجل مسيحى مصرى،من سلالة قبطية،وفى أجداده وذوى قرباه تتابع القسيسون جيلا بعد جيل فى مدينة دمنهور،ومن هذه النقطة تحديدا بدأ الداعى الخلقى وبدأت المحاذير أيضا.

يقول نظمى:«أتفق أن كان والدى شأنه شأن الكثيرين من رجال بيئته وطبقته شديد الطموح فى تطلعه إلى مستقبل ابنه،يصبو إلى أن يحقق فيه وبه ما لم يتيسر له شخصيا من الجاه العريض وعلو المكانة،وأغراه ما أنسه من استعداد لغوى وتعلق بالمعرفة والاطلاع فى طفولتى،وعزوف عن اللهو الذى يولع به أندادى،وكانت أواسط العشرينات من هذا القرن لم تزل العصر الذهبى لفرسان المنابر وصناديد

الصحافة،فصار حلم حياة أبى أن يرانى يوما ما فى مثل مكانة مكرم عبيد وشهرته،التى فتنت جميع المصريين،وقرر أن يضع أساس هذا المستقبل بأن يعهد إلى مؤدب خاص ذى قدرات استثنائية فى هذا المجال الأدبى بالذات،واتفق أن انتقل للعمل فى السويس،وشاءت الصدفة أن يلتقى فى محل أقرب حلاق إلى مكان عمله بشيخ ضرير مفرط القصر،له دماغ بالغ الضخامة،وجبينه العريض بارز بروز لافتا للنظر،واسترعى اهتمامه أنه سمعه لا يكلم عامة الناس وخاصتهم إلا بالفصحى، وفيه سمت ووقار وأنفة،وجاذبه الحديث فعرف أنه كان من تلاميذ الإمام محمد عبده،وأنه صار إمام جامع الشوام الذى يقع محل الحلاق فى مواجهته،ولذا يتخذ منه محله المختار،يقصده فيه أهل الحى التماسا للنصح أو الفتوى،ووجده حريصا فى نصحه للناس على كل ما هو رفيع ونبيل من مكارم الأخلاق كالمودة والتراحم والتسامح وترك الملاحاة والعزوف عن الشحناء،فلا عجب أن استقر فى نفس والدى أن هذا الشيخ البليغ الذكى السمح خير من يفتح لابنه كنوز البلاغة العربية ويعرفه أسرارها،ولم يفته أن حفظ ذخائر الأدب من الشعر والنثر تأتى على أهميتها بعد حفظ القرآن،أو ليس مكرم ابن سعد وأخطب خطباء جيله يحفظ القرآن ويستشهد به دوما؟أو ليس هذا البيان هو الذى بوأه تلك المنزلة من قلوب جماهير الأمة مسلميها وأقباطها؟وأيقن أن هذا الشيخ هو الذى سيضع أقدامى على طريق البلاغة والزعامة فى مقبل أيامى،وبعد تخرجى من مدرسة الحقوق».

لكن ما كان يريده الوالد لولده جاءت الأقدار بعكسه تماما،فقد عزفت نفس نظمى عندما اشتد عوده عن دراسة القانون،بعد أن أكره عليها شوطا من الزمن، وعافت نفسه طلب الزعامة الجماهيرية والسياسية التى يريدها لها أبوها،تعلق بالفلسفة،وهى بطبعها مجال غير جماهيرى،وأوقف عليها نفسه،فأصدر وهو فى

السابعة عشر بذرة مذهبه الفلسفى الخاص،الذى واصل وضع لبناته أكثر من أربعين عاما إلى أن اكتملت فلسفته التى أسماها التعبيرية،وهى مذهب فلسفى معاصر فى مصر بعد مذهب يوسف كرم،ويقول نظمى:«وما أظن أبى لو امتد به العمر كان واجدا فى عكوفى على هذا النشاط الفكرى عزاء عما هدمته من صروح أحلامه بمستقبل سياسى خلاب،فقد تمنى لى أن أجتهد لأنتفع،فصار كل اجتهادى هو النفع لا الإنتفاع،والترفع لا الإرتفاع».

كان ما حدث خلال أربع سنوات – قضى نظمى مع الشيخ البخارى أربع سنوات من السادسة إلى العاشرة من عمره – أن مؤدبه أتم تحفيظه القرآن وديوان الحماسة والكثير من شعر المتنبى وأبو العلاء خاصة،وكان يلزمه أن يتكلم بالفصحى الصحيحة المخارج والإعراب،ويدربه على دقة التعبير وبلاغته،وكان يجمع فى دروسه بين نفائس الأدب،وأدب الدين مصرا على أن كل دين فهو فى لبابه خلق كريم،ولا يكف عن تبصيره بالقيم العقلية ومواطن الجمال،ويدربه على تذوقه،فأطلق لسانه،وأطلق عقله،وأيقظ وجدانه معا،وهكذا تحقق له شئ غير الذى رمى له والده،شئ لم يدر بخلده،فقد انهدم أمامه – وهو القبطى – حتى زال تماما سور ظل قائما أكثر من ثلاثة عشر قرنا بين أمثاله وبين معالم الإسلام وسماته.

لكن فى هذا الخضم يحرص نظمى على تبرئة شيخه من أى تأثير مقصود عليه يقول:«وإنصافا للرجل أشهد أنه لم يكن قط يفاضل بين دينى ودينه،بل ينبهنى أساسا إلى مواطن الإتفاق بين جوهرى الدينين،أما مواطن الاختلاف فى الأمور الغيبية فيؤكد لى أنه لا سبيل إلى الفصل فى أمرها بالعقل،وأن مرجعها إلى دخيلة الإيمان والتسليم،لذا كان يتركها بغير مناقشة،وكان يدعونى دائما إلى قراءة الإنجيل خاليا إلى نفسى أو مسترشدا بوالدى لتفسير ما قد يغمض على من معانيه،وكثيرا ما كان يشير فى

دروس المطارحة الأدبية والتعبير إلى تعاليم السيد المسيح ووصاياه ومواعظه،وكان يحفظ منها الكثير ويردف ذلك بما يضاهيه من آداب الإسلام وأخلاقياته».

لم يزعزع هذا التأديب الرفيع إيمان نظمى بديانته،إلا أنه أطلعه بصورة فذة لم تتح لأمثاله على أسرار وحقيقة ديانة غالبية أبناء أمته،فلم يقم منذ البداية حاجز نفسى بينه وبينهم،وهو الحاجز الذى لا مفر من قيامه حيث يعشش الجهل الشائه بالعقائد المخالفة،واستقر فى نفس نظمى وهو فى تلك السن الغضة وما تلاها أن الإستنارة الفكرية ومعرفة سمات الديانات المخالفة على حقيقتها لا تضير الإيمان الذاتى،بل تجعله صافيا صفاء النور،لا معتما بدخان الجهل الداكن الذى ينقدح منه الشرر،وقد تنشب الحرائق،فما من شك فى أن الذى يثبت فى ديانته وهو جاهل بحقيقة ديانة أخرى،تعشش فى نفسه الأساطير والأراجيف عن الديانة المخالفة،فينزلق إلى ازدراءها،مهما تظاهر بمجاملة معتنقيها،وذلك ضرب من الظلم لا يليق بمتدين حقيقى غير مكتف بمظهرياته،ثم إنه آفة نفسية وفكرية تحدث آثارها البعيدة فى الحياة كافة.

ويذهب نظمى إلى أن كل من يتبصر فى لباب أديان التوحيد، والمسيحية والإسلام كل منهما دين توحيد،يدرك أن الله هو المعبود هنا وهناك،وإن اختلفت شعائر التعبد وأسلوب التوحيد،فأجدر إذن بالمتبصر أن يرى فى كل مؤمن بالله الواحد أخاه فى الله،وإن لم يكن أخاه فى الديانة.

يقول نظمى:«ولئن اشمأزت نفسى من كل تعصب فى كل بقعة من بقاع الأرض،حتى ليقشعر بدنى لمذابح المسلمين والهندوس مثلا،فيباح فيها دم البشر بسبب إراقة دم بقرة،أو لمذبحة مثل سان برتليمى فيما مضى بين الكاثوليك والبروتستنت فى فرنسا،فأنا من منطلق ولعى بالموضوعية العقلية أجد لزاما على أن أتصدى لهدم هذا الحاجز النفسى المرتبط بالجهل والتحامل على الديانة المخالفة،سواء لدى هذا الفريق

من المؤمنين بالله أو ذاك،ولكن هذا الواجب العام يتخذ صورة ألزم وأوجب حين أنظر فى أمر أهل الوطن المصرى المحدود والوطن العربى الأوسع،نذرت نفسى لمحاربة التفكير الذاتى الذى يثمر التعصب ..ولكن من أين أبدأ؟».

ويجيب نظمى على سؤاله:«يجب على بدافع من صدق إيمانى بجوهر مسيحيتى أن أهدم أولا ذاتية التفكير لدى فريق من أهل ديانتى،وأمحو أميتهم الفكرية تجاه الديانة الأخرى،التى هى ديانة أغلبية مواطنيهم،لا خدمة للديانة الأخرى التى أنبههم إلى سماتها فى المقام الأول،بل لأردهم أساسا إلى ما يوجبه عليهم جوهر دينهم من المحبة،التى أدنى درجاتها الإنصاف والتحرج من الجور والتعصب..وليس معنى هذا أنى أخصهم باحتكار ذاتية التفكير،التى تثمر التعصب،ولكن معناه أنى أرى التصدى لعلاجه فيهم أوجب على،وأكثر تطابقا مع جوهر دينى ودينهم،ولتقديم القدوة لغيرهم».

لكن ما الذى جعل نظمى لوقا يتعامل مع الأمر وكأنه فرض عين عليه،أى أنه لا يجب أن يقوم به غيره؟،يجيب على السؤال مقتنعا بما يقوله:«الجواب فى تلك الظروف التى يسرت لى ما لم يتيسر لسواى من المعرفة بالديانة الأخرى معرفة موضوعية،فلا مفر إذن أمام ضميرى ودينى أن أتصدى لهذه المهمة،التى هى التبصير ومحو الأمية الفكرية فيما يختص بالإسلام ومحمد،وإلا كنت مقصرا فى حق ضميرى ودينى وموضوعيتى الفكرية،وانتمائى الوطنى والقومى والإنسانى...ومما أثار سخطى الشديد ما أولع به فريق من أهل العلم لا من العوام (أى غير المثقفين) أعنى فريقا من المستشرقين،من الإيغال فى تشويه صورة الإسلام وصورة محمد،فهو الجور المتعمد إذن،وليس الخرافة والجهل،إنه سوء النية وليس سوء المعرفة....وزاد ذلك من حتمية مهمتى،ولعله زاد من شحنة الانفعال فى ذلك الكتاب

الأول،صدى لما أحسسته فى داخلى من النقمة على تلك الخصال أو بالأصح تلك الوصمة،التى لم تفلح القرون فى القضاء عليها».

كان نظمى لوقا يعرف المحاذير التى ستعترض طريق كتابته،يقول عن ذلك:«الكتابة الصريحة عن محمد وعن الإسلام وأعلامه وأثره المتعدد الأبعاد حضاريا وتاريخيا أمر لابد أن يلفت أنظار العامة،ويروا فيه أمرا خارجا عن مألوفهم،وهؤلاء العامة أشد خلق الله عبودية لما ألفوا،ولذا فهم أشد خلق الله عداوة للخارج عليه،وما أقرب أن يخلطوا بين الخارج على المألوف وبين المارق،ولما كنت أحسب فى ذلك الحين قبل أن تعلمنى محنتى مدى خطأى أن الجهل هو سبب ذلك الحاجز النفسى،وأعنى بالجهل هنا الجهل المعرفى بالواقع وسماته،لذا قر فى نفسى أنه متى زال الجهل المعرفى زال الحاجز النفسى الذى حسبته ثمرة له،وزال سوء الظن،وقررت التصدى لإزالة الجهل كى يزول الحاجز النفسى تلقائيا».

أدرك نظمى أن الحاجز النفسى الذى أثمره الجهل المتوارث صار جزءا من نفسية العامة،فطبيعى أن يغضبوا لكل محاولة للمساس به،وأن يقع فى روعهم أن من يهدم هذا الحاجز إنما يعتدى على صميم وجودهم وحياتهم،فكأنما طول العهد بالحاجز الطارئ الدخيل جعله جزءا من البنية الحية نفسها.

ويعترف نظمى:«لم أدرك ذلك كله منذ ربع قرن،بل حسبت أن الحاجز النفسى المنشئ للتعصب سببه الجهل الموضوعى أو المعرفى،ومتى زال الجهل زال الحاجز وزال التعصب،ورغم أن وازنت الأمر،إلا أنى وجدت أنه لا حيلة لى أمام شعورى بحتمية هذه المهمة،وقلت فى نفسى : إننى مسئول عن واجبى،ولست مسئولا عن عملى،ولو ذهب صوتى أدراج الرياح،وتمثلت بقول كانط:أد الواجب ودعك مما يكون،ولئن كنت أتوقع سوء الظن وسوء السمعة والتشهير والمقت ممن أتصدى

لتنويرهم،فمن العدل أن يكون لكل واجب ثمنه ومشقته،ولكل إقدام ضريبته،وضريبة هذه المهمة هى المجازفة بالسمعة والتعرض للمقت،ولم يكن ذلك هينا على نفسى،فأنا أعرف فيها ضعفا شديدا نحو المودة والبشاشة والتواصل،ولكن لم تكن لى حياة آخرى الأمر سوى مغالبة هذا الضعف والتصدى لما أكرهه بفطرتى،أنا الذى أشعر بتعاسة شديدة إذا قطب أحد فى وجهى،ولو بغير ذنب،فما أبغض الجفاء إلى نفسى».

وبهذا الشحن النفسى الذى أحدثه الصراع بين المحاذير والمكاره وبين الواجب الذى لا مناص منه،أقبل نظمى لوقا فى سنة ١٩٥٩ على كتابة كتابه «محمد الرسالة والرسول»،فى حماسة من يستنفر كل همته وشجاعته لأداء مهمة رهيبة،وسرعان ما حدث رد الفعل،ولم يفاجأ بالغضب والمقت،وإن كان أحزنه غاية الحزن،ولكنه لم يزعج ضميره وإن أزعج وجدانه،بل كانت راحة ضميره الفكرى والخلقى والإنسانى والوطنى عونا له على التجلد للمحنة العاطفية والاجتماعية التى بلغت أقصى مداها حتى قطعت الكثير من صلات الرحم،وبالغت فى إيذائه وإيذاء أهل بيته الأقربين،ممن لا ذنب لهم،ومنهم صبية لا إدارك لهم لمعنى ما حدث.

استوعب نظمى هذا النوع من رد الفعل ،لكن كان هناك رد فعل آخر لم ينتظره،وحاول أن يتخلص منه،يقول عن ذلك:«فوجئت بكثيرين أعلنوا على الحب،على أساس مختلف تماما عما فى ذهنى ونفسى،فقد غلب على الأكثرين منطق التمنى وذاتية التفكير،فتبادر إلى نفوسهم أنى فضلت دينهم على دينى فتخليت عنه،تماما كما تبادر إلى نفوس من أعلنوا على الحرب أنى تخليت عن دينى ما دمت قد انبريت لإنصاف الديانة الأخرى،صادرين عن عين الأسلوب من ذاتية التفكير التى تقول:إن صادقت الآخر فأنت عدوى،وإن صادقتنى فأنت عدو الآخر.

ولو كان هذا هو الواقع لما كان فيه ضير،فألوف من الناس يعتنقون كل يوم ديانة

غير ديانتهم الأصلية،ولكنه مناف للواقع،فأنا لم أكتب من منظور دينى أو إيمانى بتاتا،بل من منظور عقلى موضوعى إنسانى تماما،فكتابى تنوير معرفى وخلقى وليس كتاب دين.

وهكذا أثمر التفكير الذاتى نتيجة واحدة ذات مظهرين متضادين،أثمر البغض لدى فريق من العامة «ولو كانوا متعلمين رسميين» على أساس وهمى،وأثمر الحب لدى فريق آخر من نظرائهم على أساس وهمى أيضا،ولئن لم يكن بيدى أن أدفع عنى مقت الساخطين،ولا يلحق بضميرى منه ما يعيبه ويؤذيه،فإن واجبى الفورى ألا أسكت مطلقا على هذا النوع من الحب لأنه بمثابة استغلال أوهام هؤلاء المحبين»

صار أول واجب لابد أن يؤديه نظمى أن يبصر المحبين المعجبين بحقيقة حاله ودوافعه،وأنه لم يكن داعية للإسلام بما كتبه،بل كان مسيحيا أنفذ ما تمليه عليه مبادئ الأخلاق المسيحية،وبمنظور عقلى إنسانى حضارى،ولئن كان أنصف الإسلام فليس ذلك من منطلق التخلى عن مسيحيته،بل من منطق الإخلاص لها وللتمسك بجوهرها وأخلاقياتها،وحاول أن ينشر فى الصحف هذا التوضيح،لكن نظام عبد الناصر فرض حظرا على الصحف ومنعها من أن تنشر شيئا عن كتب نظمى،ولو حتى على سبيل الإعلان،فلم تبق أمامه وسيلة إلا أن يواصل الكتابة عن الرسول وعن الإسلام،واضعا فى صدر مؤلفاته البيان الحاسم لموقفه،وهذا أقصى ما استطاعه إبراءاً لذمته وإراحة ضميره.

لكن يظل هناك اعتراف آخر لم يستطع نظمى أن يتخلص منه،يقول:«اشتد فى الوقت نفسه الطلب المستمر على الكتاب الأول،ولكنى أقسمت ألا يعاد طبع كتاب أردت به الجمع،فأحدث الفرقة،حتى لا يتكرر انزلاق قارئيه إلى هذا الوهم،وها قد مضى ربع قرن،وما زال الكتاب مطلوبا،وما زلت متمسكا بالعهد الذى قطعته على

نفسى،فلابد أنه كان كتابا غير مناسب لحالة الناس العقلية والنفسية،بحيث أوقع الفريقين فى مضاعفات تفكيرهم الذاتى غير الموضوعى،فهو أشبه بالدواء الذى زاد المرض حدة،فمن واجب الطبيب أن يحكم بضرره ويمنعه؛لأن أعراضه الجانبية أشد وبالا من الداء الأصلى».

هنا أجدنى أتقاطع مع نظمى لوقا،فصحيح أنه قرر عدم طبع كتابه مرة أخرى بعد طبعته الأولى،لكنه لم يتعرض من قريب أو بعيد إلى ما فعلته وزارة التربية والتعليم،عندما قررت الكتاب على طلاب المدارس فى عهد الوحدة مع سوريا،وكان كمال الدين حسين هو وزير التعليم،وقدم للكتاب،فهل صدرت هذه الطبعة دون علم نظمى أو موافقته،خاصة أن هناك من يفسر ما جرى،بأن الجناح المحافظ داخل الضباط الأحرار،والذين كانوا يميلون إلى أفكار الإخوان المسلمين،هم من قرروا الكتاب،رغم أن عبد الناصر قد رفض الإعلان عنه،شئ من هذا لم يتعرض له نظمى،لكن يبدو أن هذه الطبعة قد حفظت للكتاب وجوده،فلا توجد نسخ على الإطلاق من الطبعة الأولى للكتاب،وتظل طبعة وزارة التربية والتعليم هى الموجودة فقط.

أغلب الظن أن هذه الطبعة من الكتاب صدرت بعلم نظمى لوقا وموافقته ومباركته،والدليل على ذلك أن طبعة وزارة التربية والتعليم كانت تحوى عددا من الرسائل التى وصلت لنظمى تشيد بعمله،ومنها رسالتى فتحى رضوان وأمين الخولى،ومؤكد أن نظمى راجع هذه الطبعة،وهو ما يحتاج تفسيره إلى وقفة لاحقة.

أعود لنظمى مرة أخرى لأجده يقول:«لكن غياب الكتاب وتواتر الطلب عليه من جيل يسمع به ولا يمكنه أن يقرأه خليق بأن يحوله إلى أسطورة تكثر فيها المبالغات،وهذا فى حد ذاته مرض ينبغى التصدى له،وبعد مرور ربع قرن صرت

أكثر معرفة بموضوعى،وأقدر – فيما أرجو – على توضيح فكرى بصورة أحرص على أن تكون خالية من اللبس السابق غير المقصود،ولذا وجدت من واجبى الفكرى والخلقى معا أن أصدر كتابى هذا الجديد،كى أصحح تفكير الناس عن طريق تصحيح تصورهم لنوع موقفى الفكرى البحت من الإسلام وعلاقتى به،وسدا لمنافذ اللبس والإبهام فى هذا الشأن».

(٦)

اختار نظمى لوقا أن يكون مدخله إلى كتابه «أنا والإسلام» هو تحليل أسباب فشله الذريع منذ ربع قرن،وردود الفعل التى صاحبته،وكيف كانت أعراضا تشير على تباينها وتناقض مظهرها إلى داء واحد،وبذلك لا تكون ردود الفعل والمحنة أحداثا شخصية عارضة،بل ظاهرة من المفروض الكشف عن أسبابها الكلية،والعلم موضوعه هو كلى متوار خلف الجزئيات والأعراض التى ترشدنا إليه.

وهنا سأثبت فقط ما قاله الرجل نصا،وقد تكون لنا بعده مناقشة وتساؤلات.

(٧)

تحت عنوان«وضاع مغزى الإهداء كتب نظمى »:

ذلك الكتاب الأول – محمد الرسالة والرسول – افتتحه بإهداء :«إلى روح المهاتما غاندى الذى كان يصلى بصفحات من براهما،وآيات من التوراة،ومن الإنجيل ومن القرآن،ومات بيد متعصب من أبناء ديانته شهيد دفاعه الصدق المجيد عن حرية العبادة لأتباع محمد».

ومن المفارقات التى لا يفوتنى ابتداء أن أتنبه وأنبه إليها،أنه قد تكون لذوى المبادئ من المفكرين ناحية غفلة أو غباء من نوع خاص،مصدره أنهم يحسبون القراء أو السامعين كافة على نصيب معقول من الفطنة،ثم يتضح لهم من التجربة

المرة،المتمثلة فى رد الفعل،أن الكثيرين منهم لا يملكون نصيبا متوسطا منها،وقد كان حظى من هذا الغباء ومن مرارة رد الفعل جسيما جدا والحق يقال.

فالمر لا يحتاج إلا إلى نصيب متواضع من الفطنة كى يفهم أن لهذا الإهداء إلى غاندى المشفوع بحيثياته تلك مغزى معينا،فالرجل ليس من ذوى قربى ولا من بنى وطنى ولا من أهل ديانتى ولا من أتباع محمد،وليست لى به أى علاقة تجعل الإهداء موجها إلى سواد عينيه،فليس من العسير على القارئ العام أن يستشف من هذا الإهداء أنى عنيت به أنه النموذج أو النمط الفكرى والنفسى والسلوكى الذى أدعو إليه فى النظر إلى العقائد كلهاعلى إختلافها ،نظرة إحترام وتكريم وإخاء..فكأننى أقول لقارئى:لتكن ديانتك ما تكون،فهذا شأنك وحدك،ولكننى أدعوك ألا تتخذ منها ذريعة للتعصب ضد الديانات الأخرى،بل اجعل من جميع أتباعها إخوة لك،واجعل من كل تلك الديانات أخوات لديانتك فى التوجه إلى الله،فى تنزه عن الأنانية والتعصب،وفى حب شامل للبشرية كافة.

تعمدت بهذا الإهداء الاستهلالى أن أجعل المثل وهو غاندى،الذى كان يحظى فى ديانته بمرتبة القداسة،وهو ليس مسيحيا ولا مسلما،ولكنه موقن بأن جوهر كل الديانات منحصر فى أنها سبل تتجه بالمؤمنين بها إلى الله وإلى الفضيلة ومكارم الأخلاق التى هى نقيض الأنانية،فلتكن ديانتك أنت أيضا على عينك ورأسك، ولكن حذار أن تجعلها خندقا ترمى منه العقائد الأخرى أو أتباعها بالكراهية أو الإزدراء أو سوء الفهم،بل كن مثل غاندى روحا عظيما تجتمع فيه محبة كل البشر واحترام جوهر كل الديانات.

والحقيقة أن نخبة من أفاضل لا يستهان بهم من المسلمين ومنهم علماء دين كبار أجلاء،فطنوا إلى هذا لمغزى،وأحسنوا فى ضوئه التعرف على المقصود من

كتابى،ووجدوا فيه صدى لما فى نفوسهم النقية من ليبرالية وسماحة،بل إنهم حرصوا على تهنئتى بحلول الأعياد المسيحية،إيماء إلى أنهم تبينوا من أنا وماذا أنا بصدده من موقف فكرى يقدرونه.

وقد دلتنى التجربة المرة على أن نسبة هذه الفطنة،لأى هؤلاء الأفاضل المستنيرين الموضوعيين ممن سعدت بحسن تقديرهم وفهمهم ومحبتهم على أساس صحيح،لم تكن تتجاوز كثيرا واحدا بين كل مائة من قراء ذلك الكتاب الأول،وأضعاف أضعافهم من سمعوا اللغط به وانساقوا إلى مطاوعته لطوايا نفوسهم،فالكثرة الكاثرة فاتهم مغزى الإهداء،فكان حالهم مثل حال من لم يفهم العلامات الإرشادية التى تهدى إلى معالم الطريق،ففاتهم بالتالى مغزى الكتاب كله،وسبب ذلك أنهم أصحاب عقلية ذاتية تناقض الموضوعية على طول الخط.

ومنذ الآن يحسن أن نصنفهم إلى فئات حتى لا يختلط علينا تشخيص أسباب ما منيت به فى ذلك الكتاب من الفشل الذريع.

هناك أولا من سخط على وأبغضنى وأعلن الحرب على،ولو كان من أقرب ذوى القربى وأقدم الأصدقاء والصحاب؛لأنه لم يدرك ما رميت إليه بذلك الإهداء،ذلك أنه فى الغالب لم يتجاوز العنوان المطبوع على الغلاف،فرمى الكتاب من يده وهو يلعنه،فقد قرر فى نفسه أنى ما دمت قد نوهت بمحمد ورسالته فأنا عدو دينى نابذ له،معتنق الديانة الأخرى،وليس بعد الكفر ذنب.

وهناك ثانيا فئة من أعلنوا الحرب على؛لأن الواحد من هؤلاء ظن على عكس ما ظن الأول،منحازا لديانته نابذا لديانتى الأصلية،وعلى ما يبدو من تناقض ظاهرى تام بين موقفى هاتين الفئتين من قرائى،أو السامعين على الأرجح بغير قراءة،كان منظورهما الفكرى واحدا،ولكن من أساسيين متباينين،فالنظرة فى الحالتين متحيزة

ذاتية،لا موضوعية فيها ولا نزاهة،وتعجز عن تصور أى موقف غير ذاتى وغير متحيز.

وينبغى أن أنبه هنا إلى أن من بين هؤلاء وأولئك أى من أعلنوا الحرب ومن أعلنوا الحب من الذاتيين المتحيزين كثيرين جدا من المتعلمين الرسميين،بل منهم من يحملون أعلى الشهادات العلمية ،وهنا موضع جدير بالتأمل للتمييز الحاسم بين التعليم والثقافة،أى بين المعلومات الذهنية القائمة على الإستيعاب والتطبيق الفنى،وبين المستوى الفكرى المستنير الذى قد لا يكون صاحبه أحيانا جاهلا بالقراءة والكتابة،أى أننى أفرق بين الأمية الأبجدية والأمية الفكرية.

وأورد هنا نموذجا واحدا على سبيل الإيضاح،هو دكتور فى الفلسفة له بعض الشهرة،كنت آنس فى أحاديثه الاعتدال والمعقولية،التقى بى فى مكان ما،ولما عرفوه من أنا،قال : أنه لا يأخذ على كتابى إلا ما أسماه مجافة اللياقة (وتأدبا منه لم يقل الجليطة)؛لأنى أهديت الكتاب عن رسول الإسلام إلى رجل لا يدين بديانة سماوية وهو غاندى،وزوى الرجل وقد زم شفتيه فى امتعاض.

وهكذا ضاع أيضا مغزى الإهداء،فضيق أفق الرجل حال بينه وبين إدراك المنظور الإنسانى الموضوعى،الذى يرتفع فوق خانة الديانة المسجلة فى البطاقة الشخصية،ليرقى إلى مستوى الجوهر من كل تدين ومن كل سماحة وإخاء.

وطبيعى أنه ما دام هذا هو المعيار الوحيد الذى يقيس به هذا الجهبذ مواقف الناس ومعادنهم،فلابد أنه امتعض أيضا من تناول رجل مسيحى متمسك بمسيحيته لموضوع إسلامى كهذا،فمن فاته إدراك عظمة ونبل موقف غاندى الذى انتهى به إلى الإستشهاد فى سبيل دفاعه عن حرية المسلمين فى العبادة والتدين،أولى به أن يفوته فهم موقف من هو مثلى،على ما فى ذلك الرجل من ذكاء ذهنى فى الشرح

والتوضيح كلما تناول نصا من نصوص ديانته أو مهنته،غفر الله له وتغمده برحمته.

ولكنى أحب دائما أن أتعلم من تجاربى،وأتجاوز أثرها الجزئى إلى ما يمكن أن أفيده منها فى صقل عقلى،ولذا لفت موقف هذا الرجل منذ ربع قرن نظرى إلى الفرق بين الذكاء الذى هو ملكة ذهنية منطقية،وبين السماحة التى هى سجية نفسية أساسا،والسجايا النفسية هى التى تحدد للذكاء اتجاهاته،وهى التى تثمر مشاعر الميل والنفور.

وحاولت أن أنشر فى الصحف توضيحا،ولكن تراءى للحكم الاستبدادى يومئذ أن حظر النشر يريح دماغه من الضجة التى أثارها الساخطون على الكتاب،فلم يبقى أمامى من سبيل لملاقاة تلك المنابر التى فتحت نيرانها ضدى بغير تورع،تبتغى الثواب عند الله بسبى والإفتراء على،ولا لإبراء ذمتى بتبصر من تحيزوا لى على غير أساس صحيح،إلا أن أصارح من يقابلوننى شفاها أو أن أرد على من يراسلوننى كتابة،إلى أن أصدرت كتبى التالية فوضعت فى صدرها بيانا حاسما.

ولكن إبراء الذمة كان له رد فعل على ثلاثة أنواع،فهناك أولا قلة من الناس صدقونى،وقالوا : هذا موقف حسن على حال،والإنصاف خير من الكراهية،وهؤلاء نفوسهم ولم تطمس بصائرهم،وهناك ثانيا من لم يصدقنى، وأحسب أن هؤلاء من يظنون بأنفسهم الحذاقة فظلوا مصرين على أننى مسلم بالقلب،وإن كنت أتظاهر بغير ذلك،وظل هؤلاء على حبهم المضلل لى،فصاروا موضع حزنى وأسفى عليهم؛لأن موقفهم دلنى على أنهم مصابون بما يقابل فى طب العيون عمى الألوان،وأعنى به آفة نفسية فكرية هى العمى عن الموضوعية،فهم عاجزون عن إدراك إمكان وجود شخص موضوعى غير متحيز وغير متحامل.

فأنت فى هذا المفهوم المريض إما معه أو عليه،ولا ثالث لهذين،فإن كنت صديقه

فأنت حتما عدو الآخر،وإن كنت صديق الآخر فأنت حتما عدوه،فصاحب هذه العلة النفسية يرى الناس حتما على غراره،أى أشخاصا مسطحين،ليست لهم أبعادا متعددة،وكلهم مثله فى مرحلة التركز فى الذات،وهى المرحلة النفسية التى تتميز بها الطفولة،ولطفولتهم النفسية التى لم تتطور منحونى حبهم مصرين على تصورهم،فأورثنى إصرارهم هذا أشد حالات الحنق والضيق،فما كتبت اجتلابا للرضا والسخط،بل بغية إصلاح تفكير الناس،فكانت محنتى الكبرى استعصاء هذا الإصلاح وهم أحوج الناس إليه،ومن ثم كان وقع هذا النوع الثانى من رد الفعل قاسيا جدا على نفسى.

أما ثالثا فنوع من الناس كان رد فعلهم على قلتهم أهون على نفسى من النوع الثانى،وإن كان فى تصديقه لما نبهته إليه شديد الفظاظة والغلظة،فهو يصدر عن نفس المنظور الذاتى،ولكن فى غير مسالمة،بل بشحنة متفجرة من العدوانية قلبت محبته المضللة نقمة وزراية،وهذا يزيح عن ضميرى العبء،وإن لم يطرأ به أى تحسن على تحقيق الهدف وهو إصلاح التفكير.

وسأروى ها هنا نموذجا واحدا لهذا الصنف الأخير وهو قليل العدد ولله الحمد،طرق بابى بعد ظهور الكتاب الأول عن محمد مباشرة رجل أبيض البشرة مشرب بحمرة فى ملابس أوروبية يوم أن تأكد أنى فلان حتى عانقنى،فقلت فى نفسى اللهم اجعله خير،وجلس على طرف المقعد فى تأدب واضح،وراح يثنى على كتابى،ثم قال:أنا أعمل بالسعودية وأسكن مكة المكرمة،وقد جئت أدعوك وأسرتك لزيارة مكة والعمرة أو الحج إن تأخرت إلى موسم الحج.

فسألته بهدوء شديد :كم يسرنى أن أزور مكة،ولكن أيسمح بهذا للمسيحيين؟فغاصت الحمرة الطبيعية من وجه الرجل،وفغر فاه،وأخيرا عثر على

لسانه،فقال: كمن لم يصدق ما سمع:أولم تسلم؟،فقلت له:لا..وماذا دعاك إلى هذا الظن؟فانتتر الرجل قائما يبتدر باب المسكن،وأنا أتبعه ولم ينس وهو فى فتحة الباب أن يلتفت إلى فى مقت شديد وإزدراء واضح،ثم بصق على الأرض،وانطلق يهبط السلم كمن ينجو بنفسه من وباء،ووقفت أنظر فى أعقابه وأنا أحمد الله أن أمثاله ليسوا كثيرين جدا.

وبعد ذلك بأيام التقيت رجل مثقف كنت أعرفه منذ سنين مولعا بالإلحاد مغرقا فى تطرفه العلمانى،ويجاهر بعدائه للعقائد الدينية كافة،ويعدها بلا استثناء تخلفا فكريا وحضاريا،فإذا به ممتعض مستاء لأننى خيبت أمله،وابتدرنى بالحوار

- أمثالك يا فلان يخون موضوعية النظرية العلمية؟
- بل أنا داعية إلى موضوعية التفكير.
- وما العلاقة بين موضوعية التفكير والإعتقاد الدينى..أليسا نقيضين؟
- إنهما مجالان مختلفان ولكنهما ليسا متناقضين.
- وكيف كان ذلك.
- قد يجتمع التفكير الموضوعى الذى هو لباب العدل والإيمان الدينى وقد يفترقان،فيكون الإنسان مؤمنا بدين وموضوعيا فى رؤيته لكل شئ،وعادلا فى أحكامه،يكيل جميع الأمور بمكيال واحد،فيتحول إيمانه إلى هوى عقلى جامح وإلى جور وعدوان،وينبغى أن تعلم أن الأديان تدعو للعدل والإنصاف مهما اختلفت الديانات، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ ،هكذا يقول القرآن،وأحبوا أعداءكم هكذا يقول الإنجيل،وقد يكون الإنسان غير مؤمن بدين وموضوعيا كما أحسبك أنت،وقد لا يكون هذا ولا ذاك،كما أرجو ألا تكون أنت،فأنا ألزم الملحد الذى ينكر وجود الله أن ينصف الأديان،ولكنى أطالب من

يـؤمن بوجـود الله أن يـزن العقائـد الأخـرى وآدابهـا وشرائعهـا بميـزان موضوعى،ويستحسن منها ما يستحسنه من عقيدته بغير تحيف ولا جور ولا تعسف.

- ظننتك تدعو أمثالى إلى التدين.

- هـذا هـدف حسـن،ولكنه لـيس هـدفى،فأنا داعيـة إلى موضـوعية التفكـير والعدل،بحيث لا يتحامل مؤمن بدين على سواه،أما من ينكر الأديان،فقد ارتفع عنه هذا التكليف لأنه يسوى بينها فى الرفض،فلا إكراه فى الدين أما العدل فواجب خلقى ومنطقى معا على كل عاقل.

وخلوت إلى نفسى وقد غلبت على الكآبة،فصوتى يذهب أدراج الرياح فيما يبدو،ونادانى صديقى الذى فى داخلى:أنسيت من أحسنوا فهمك،إنهم الصفوة والكيف ينبغى أن يعنيك لا الكم،أليس صحيحا أنه «إنما يعرف الفضل من الناس ذووه».

وأحسست أن صديقى الذى بداخلى يربت على كتفى ليعزينى،ولكنى ضقت بقوله وعزائه،وقلت:هؤلاء لم يكونوا بحاجة إلى ما كتبت،فأنا لم أصنع برضاهم عنى شئيا؛لأنى لم أكتب استجلابا للرضا أو السخط،إنما أردت الإصلاح وهؤلاء صالحون بغير حاجة إلى مثلى،والآخرون هم الذين كان من الممكن أن أصنع لهم شئيا ذا بال،ولكنهم كما ترى،فما أحسبنى بما أحاوله إلا كمن يكتب على الماء.

(٨)

وتحت عنوان«بين الفرع والأصل» يكتب نظمى لوقا:

البداية الحقيقية إذن لتعلمى من فشلى واستخلاص الدروس الباقية من هذه المحنة الجزئية،أن أتعرف أولا على المعنى الحقيقى للجهل،وهل الجهل هو فعلا عدم

المعرفة،أم هو شئ آخر،يترتب عليه عدم المعرفة؟..الجهل بالفيزياء علاجه دراسة الفيزياء،وتعلمها فى المدارس أو من الكتب،والجهل بالحساب علاجه تعلم قواعد الحساب والتدرب على تطبيقها تطبيقا صحيحا،ومثل هذا الجهل هو انتفاء المعرفة.

ولكن المشتغلين بالتعليم والتربية يصطدمون أحيانا بمن ليست لديهم القدرات،أو الاستعداد الضرورى لدراسة علم أو فن معين،فمن المتعذر بل من المستحيل أحيانا أن تعلم الموسيقى لمن يوهب أذنا موسيقية فلا يستطيع التمييز بين نغماتها.

وهناك أيضا ما يعرف بظاهرة التسرب من المدارس،وهم الصغار الذين لا ميل لديهم للتعليم،فيهجرون مقاعد الدرس،وربما برعوا فى أمور أخرى يشغفون بها،كلعب الكرة،أو صيد العصافير،أو بعض الحرف،وأعرف شخصيا من عجزوا عن تعلم جدول الضرب ووقفت معلوماتهم فى الحساب عند أوليات الجمع والطرح فى حدود الأرقام التى لا تتجاوز الرقم ١٠.

فهل الجهل بحقائق العقائد له مثل هذا الوضع؟...قد يكون أحيانا فهذه الحقائق شأنها شأن أى معرفة وتعلم،يتفاوت الاستعداد لها ويتفاوت الإقبال عليها،ولكن فى هذه الحالة يكون العائق عن المعرفة،او مصدر الجهل واحدا ثابتا بالنسبة لكل العقائد سواء فى ذلك عقيدة الشخص أو العقائد الأخرى،فالقدرة هنا معرفية،والقصور أيضا معرفى.

ومن لم يكن لديه قصور ذهنى،ولم يكن نافرا من المعرفة،قد يعرف المتاح له – وهو عقيدته – ولا يعرف العقائد الأخرى،لا لشئ سوى أن معرفتها لم تتح له،ولكن هذه الإتاحة لم تعد منذ اختراع الطبعة عسيرة المنال،فنفى الجهل المعرفى عمن ليس بهم قصور ذهنى أمر ممكن،وهؤلاء هم الذين تجدى الكتابة لهم

وتبصيرهم بحقائق الأديان المخالفة لديانتهم،لغاية معرفية محض،لا لغاية تبشيرية بالتأكيد،وليس فى أمرهم مشكلة.

ولكن علام أطلعتنى تجربتى الفاشلة؟

أطلعتنى على أن هؤلاء قلة،لا لعجز فى الأكثرية من الناس عن نفى الجهل،بل لعزوفهم عن هذه المعرفة بالذات،وعندئذ يكون الجهل مظلوما،فهم غير جاهلين لأنهم لم يعرفوا،أو لم يتح لهم أن يعرفوا،بل لأنهم لا يريدون أن يعرفوا،أو يريدون ألا يعرفوا وهذا النوع من الجهل ليس سببه عدم المعرفة،بل الصد الداخلى عنها أو الحاجز النفسى الذى يترجم فى صورة نفور من هذه المعرفة بالذات،وهذا الحاجز النفسى هو الذاتية والانحياز والتعصب،وهو الذى يحول الجهل من آفة إلى عاهة نفسية تؤثر على أسلوب التفكير،وعلى أنماط السلوك.

مكمن الداء نفسى وليس معرفيا إذن،والفضيلة ليست علما أو معرفة إذن كما ذهب سيدنا الطيب سقراط،الذى خال الناس جميعا على شاكلته،فجرعوه السم عقابا له،عسى أن يتعلم أنهم ليسوا كلهم على شاكلته،المسألة فى لبابها نزوع وليست معرفة،ومرجعها إلى مدى التطور فى المراحل النفسية من الطفولة إلى النضج،أى من التركز فى الذات الذى هو مصدر الأنانية والتعصب والذاتية،إلى تجاوز الذات الذى هو مصدر الموضوعية والإيثار والعدل،على تفاوت فى نوع ودرجة الذات من العدل إلى الإيثار أى إنكار الذات.

فالمتركز فى ذاته يجعل من مصلحته الخاصة أو لذته أو هواه مقياس كل شيء،وكل شخص شأنه شأن الطفل،ولكن شيئًا اخترعه الإنسان بما هو اجتماعى بالطبع ونسميه التربية،جعله يجتهد فى إخراج الطفل من هذه المرحلة،كى يكون عضوا فى مجتمع صغير هو الأسرة،ثم فى مجتمع أكبر هو المدينة أو الوطن أو العالم.

وهنا يتفاوت وعى المربين وعلى رأسهم الأبوان فى فهم هذا الإعداد النفسى والسلوكى الملائم،ففى أسرات معينة يربون الطفل على أن هدفه فى الحياة أن ينفع نفسه،أى أن يسعى للانتفاع إلى أقصى حد،بصرف النظر عن أى اعتبار آخر وفى أسرات أخرى يعلمه الوالدن مبادئ اللياقة التى تيسر وتسهل له قضاء حاجاته والتعايش مع الناس ودفع الأذى والعدوان عن نفسه واستجلاب المنفعة،وقد يكون هناك من يربون أولادهم على مكارم الأخلاق،كالتسامح والإغضاء عن اللغو،ولكن أيضا من يربون صغارهم على العدوان أو الاستعلاء،إذا كانت الظروف الاجتماعية والطبقية تسمح بذلك،أو يربونهم على الوصولية والنفاق،أو على حب المظاهر والأبهة والتناظر،وكلها فى الغالب إلا أقلها أنماط أنانية ذاتية،ما عدا تلك التربية الأنانية وبين مكارم الأخلاق أو الإيثار،وهى التربية على الإباء وتأكيد الذات وعزة النفس فى إطار حب العدل والالتزام به وعدم الرضوخ للضيم.

ومن سمات الذات الأنانية أن تقيم حول الذات وفريقها الذى تنتمى إليه ويمكن أن نسميه الذات المتوسعة سورا مثل أسوار مدن العصور الوسطى،والسور أو الحاجز النفسى يؤكد الذاتية،ولا يمكن أن يقوم إلا على أساس أو استراتيجية الخوف من الفريق الآخر،أو الشخص الآخر،وسوء الظن به،وهذا هو الأساس العدوانى للسلوك،عدوانا سلبيا هو الخوف وسوء الظن،وعدوانا إيجابيا هو الإيذاء،أو هما العدوان الضمنى والعدوان الملعن.

وكل من يتسرب من السور ويأتى بنبأ صادق محايد فيه تعريف بما هو خارجه،إما أن يعد مارقا أو يرمى بالخيانة أو العمالة،وهكذا كان الحال عندما كانت الناس قبائل متنابزة متحاربة،وقد احتفظوا بهذا السلوك عندما صاروا أقاليم وأوطانا ودولا،

واحتفظ كثيرون به حين اعتنقوا الأديان،فكل إنسان فى كل المجالات أسير بنيانه أو تكوينه النفسى،والذاتية المتفشية لا تتجزأ فى المعاملات وفى السياسة وفى الاعتقاد، وكذلك الموضوعية حين توجد،وهى غالبا مغتربة وأصحابها مغتربون وسط الأغلبية الذاتية لا تتجزأ فى معاملة وفى سياسة وفى اعتقاد.

فهل العيب فى المعلومات؟ هل العيب فى العقائد؟

كلا العيب فى النفوس وموقفها من الملعومات ،ومن هضم العقائد،كما أن العيب ليس فى الغذاء غالبا،بل فى المعدة والأمعاء التى تتمثل الغذاء،الحقل الواحد إذا أكل من نباته الواحد بقرة وثعبان ونحلة وحمار،أخرجت البقرة لبنا،وأخرج الثعبان سما،وأخرجت النحلة شهدا،وأخرج الحمار روثا.

وكأنما تنبأ أفلاطون إلى الخطأ الذى كلف أستاذه سقراط حياته فى مسألة الرذيلة جهل والفضيلة معرفة أو علم،فقال إن الناس معادن،فمنهم النحاس والفضة والذهب.

ولعله مما يبعد عن هذا الرأى شبهة القول بالطبائع الجامدة،أن الإستعدادات الفطرية والقدرات الفردية معترف بها علميا،وأن التربية مهمتها تلافى النقص وحسن التوجيه،وتطوير النفوس من الذاتية إلى النضج السوى،فهو ممكن على كل حال،كذلك معادن النفوس تستطيع التربية الجيدة أن تحصل منها على أفضل حالاتها الممكنة.

وإن لم تخن الذاكرة فقد سمعت حديثا أو لعلى قرأته معناه أن الناس معادن،وخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام،وشراركم فى الجاهلية شراركم فى الإسلام أو كما قال.

فليس الإنتساب للديانة كافيا،بل المهم هو تأثر النفس وتغيرها،فالدين الجيد

كالغذاء الجيد،والغذاء الجيد تختلف حصيلته بين البقرة والحمار والثعبان والنحلة،والمعول فى التدين على الصحة النفسية،أما النفس العليلة فكل ما تأتيه عليل،وقديما قال المسيح : أنه كما تكون الشجرة تكون ثمرتها،والشوك لا يثمر عنبا.

الجهل المعرفى إذن مظلوم،ومكمن الداء هو الحاجز النفسى الذى تبنيه الذاتية المتأصلة حول نفسها لتغلى وراءه بالخوف والمقت والعدوان،وما هكذا الصحة النفسية وما هكذا جوهر كل عقيدة دينية.

(٩)

وتحت عنوان «موقف مع نفسى» كتب نظمى:

هنا وجب على أن أسأل:أمن الممكن عمل شئ بإزاء هذا الحاجز النفسى،وما هو؟

وقد يكون التاريخ نافعا لنا فى هذا الموقف،فكل موقف للمعرفة الموضوعية كان له فى عصور التخلف الفكرى حيث تسود الذاتية،رد فعل عدائى إذا انطوت هذه المعرفة على ما يناهض تصورا قديما تشرنقت حوله المشاعر،فلو رجعنا مثلا إلى موقف علمى حاسم هو موقف جاليلو بعد كوبرينك فى عصر النهضة،لوجدنا أن الناس ناصبوه العداء بكل عنف وعدوه كافرا،وكاد ذلك يؤدى به لولا أنه ارتد بظاهر اللفظ عن نظريته.

ولكن هل ماتت النظرية؟

إنها نظرية علمية أى موضوعية معرفية،وقد عاداها الناس لأنها تقلب موازين تصوراتهم المألوفة،فبعد أن خالوا منذ قرون أن أرضهم هى مركز الكون،إذا بهذا الرجل يهدم ذلك الاعتقاد،ويقول : إنها ليست ثابتة ،ولا تدور حولها الشمس والكواكب كما يتراءى لهم،بل الأرض تابعة للشمس،وتدور حولا فى واقع

الأمر،وبذلك ينهار مجد الأرض الظاهرى،وينهار بالتالى مجد البشر الموهوم.

إلا أن للحقيقة الموضوعية صلابتها التى تجعلها بمرور الزمن تتغلب على جيوش الأوهام التى تناصبه العداء،وبذلك ينتصر جليلو بعد موته،وماتت عنجهية محاكم التفتيش.

وعلم الطب الحديث لم يكن طريقه مفروشا بالورد،فمنذ أمد قريب كانت الأم الجاهلة ترفض التشخيص العملى لمرض ابنها،وتؤمن أن ما به عين حسود،أو عمل سحرى رمته به ضرتها؛لأن ذلك يملق غرورها بجمال ابنها،ويدفع عنها تهمة القذارة التى تجعلها هى وابنها تحت رحمة ذبابة حقيرة تنقل الجراثيم إلى الطعام.

فالأسلوب النفسى أسلوب ميكانزم دفاعى نفسى،مرتبط بالحياة النفسية، ومرتبط بالتفكير الذاتى الذى يناصب الموضوعية العداء فى جميع الميادين، فمن باب أولى يرتبط هذا الحاجز النفسى بالأمور الوجدانية جميعا،ويرتبط على الخصوص بالعقائد التى تكتسب هذه السمة الذاتية عند من يغلب عليهم المستوى الذاتى فى التفكير،ويكون من السمات المميزة له منطق التمنى الذى يجعل الشخص يصدق ما يروقه،ويشيح عما لا يروقه،أو هو بعبارة أخرى أسلوب التعامى عما يكره بل العداء الأعمى له والإقبال على ما يهوى،ومن هنا ينشأ التضخيم الأسطورى وتنسج الخرافة حول ما يوافق أهواء المرء ذى التفكير الذاتى،وكذلك الخرافة المضادة حول ما يباين أهواءه واعتقاداته الذاتية.

مزيد من التنوير هو العلاج لهذا التفكير الذاتى،بحيث يقضى تزايد الاتجاه الموضوعى فى التفكير على منشأ الحاجز النفسى،الذى هو وليد ذاتية التفكير،وقد بات التنوير فى عصرنا متاحا عن طريق وسائل التربية الحديثة وعن طريق وسائل الإعلام التى ينبغى أن تكون فى حقيقتها الوسائل الأساسية للتنوير الفكرى،لا

بمعنى بث المعلومات،بل بمعنى تغيير طريقة التفكير نفسها والسلوكيات التى وراء التفكير ،فالأمل معقود على هذه الوسائل أن تقضى على التفكير الخرافى،وتتجه بالفكر إلى الأسلوب الموضوعى شئيا فشئيا.

أقول أن الأمل معقود عليها،ولكن هذه الوسائل مقيدة فى الغالب باعتبارات كثيرة،تجعلها فى كثير من الأحيان تراعى مطلب الجماهير،أى تتحرى غالبا ما يرضى الجماهير ويسليها،لا ما يصلح من شأنها،وكثيرا ما تنساق وراء الموجة الطاغية،بدلا من التصدى لها والوقوف فى وجهها.

يبقى بعد هذا أن التصدى لشق الطريق أمام الموضوعية هو واجب المفكر فى المقام الأول،قبل أن يكون مهمة التنفيذيين من القائمين بالتربية والإعلام،فالمفكرون قدرهم فى أمور الفكر وأمور العلم على السواء أن يتلقوا الصدمة الأولى التى تواجه كل دعوة غريبة،ولكن الأمر فى هذا الموقف يتعلق بشخص معين،فى تجربة معينة،وهذا الشخص هو أنا،فما هو الدرس المستفاد من فشلى؟

أما من استجابوا بحسن الإدراك فلا حاجة بهم إلى كلما أكتب؟أثمة جدوى من جهد يثمر عكس المقصود به على طول الخط؟...المستجيبون لى استجابة صحيحة هم أصحاء أصلا،ومن لا رغبة لهم فى الإستجابة لا جدوى من التوجه إليهم بالخطاب،فلا معنى لمواصلة السير فى هذا الإتجاه،هكذا قال لى الواقع،كف يا هذا عن الكتابة على الماء.

ولم أجد على هذا ردا معقولا،ولكن صديقى الذى بداخلى أصر هذه المرة على اللجاج فى المخالفة،فلكزنى وقال:لا تظن أنك أبرأت ذمتك،فما دمت تراهم معتلين،وما دمت تعرف ماذا يبرئهم،فليس من حقك أن تصمت،وأنت مدرك ما

تبديه الذاتية دائما من مقاومة للدعوة إلى الموضوعية أعنف المقاومة وأضرارها،ولا تنس كلمة السيد المسيح:ليس الأصحاء بحاجة إلى الطبيب بل المرضى.

فقلت لصاحبى:هذه الحقيقة على عينى ورأسى،ولكن ما الجدوى،وهم لا يريدون أن يتغيروا،ولا جدوى إن لم يحدث التغيير من داخلهم،والتغيير من الداخل لا يستطيعه أحد إلا الشخص نفسه،الذى يراد له أن يتغير،فأى دور لمثلى،سوى تكرار ما صنعت،وقد تبين أنه عقيم عقيم عقيم؟

فقال صاحبى:لك مثل الزارع الذى ضربه السيد المسيح أسوة،ولك فيه قدوة،دعنى أذكرك به إن كنت نسيت:هو ذا الزرع قد خرج ليزرع وقع بعض الحب على جانب الطريق،فجاءت الطير فالتقطته وجاء بعضه الآخر على أرض صخرية رقيقة التراب،فنبت من وقته لأن ترابه لم يكن عميقا،فلما أشرقت الشمس احترق،ومنه ما وقع على الأرض الطيبة فأعطى بعضه مائة،وبعضه ستين،وبعضه ثلاثين،فمن كان له أذنان للسمع فليسمع.

فابتسمت فى إعياء وقلت:لم أكن نسيت هذا المثل الذى جاء فى الفصل الثالث عشر من بشارة متى،ولكنى لا أدرى فيما حولى أين الأرض الطيبة؟فمن أحسنوا الإستجابة لى أرض طيبة أصلا نباتها يانع ولا حجاة إلى زارع ضعيف مثلى.

فقال صاحبى بإصرار:أنت مخطئ فرصتك كامنة فى النفوس النقية التى لا تقاوم المعرفة متى أتيحت لها،ولكنها لم تتح وسط ظروف البئية ،فحتى لو كانت نسبة هؤلاء ضئيلة فهم يستحقون ما يبذل من جهد؛لأنهم بحاجة إلى من يفتح عيونهم السليمة على ما كان محجوبا عنهم،بحاجة إلى من يرفع ستار الجهل عن معارف مجهولة لهم لحكم الظروف،فينمو فى داخلهم استعدادهم الكامن للموضوعية، هؤلاءهم أرضك الطيبة التى لم تزرع،فازرعها أنت،فهؤلاء هم الأمل،وهم الشمعة

التى مهما كانت صغيرة،لإنها تبدد الظلمات،ولا يلبث نور الموضوعية أن ينتشر منهم بمرور الزمن،:أد واجبك ودعك مما يكون.

ليس محمد أو المسيح هو الهدف النهائى لكتاباتى إذن،بل هما وسيلتى للتبشير بالموضوعية،فلست مبشرا بدين،ولكنى مبشر بالعدل،والنزاهة بين يدى المؤمنين بكل دين،بل بين يدى جميع البشر،ولكن الذاتية تمسخ العقائد السامية وتحول سماحتها وعدلها إلى تحيز وتعصب أعمى،وضد هذا المعقل الباطل للذاتية والتعصب ينبغى أن توجه أعلام للموضوعية والنزاهة وأبواقهما الصارخة،ضد هدا المعقل الباطل الذى يمسخ جوهر كل تدين تكون معركة الموضوعية والعدل والسماحة والحب.

ولا تتبدى الموضوعية فى أوجها إلا حيثما تكون إنصاف نزيها لعقيدة مخالفة،إذن هنا ميدان المعركة الحقيقية ضد الذاتية والجور والعدوان،لهذا يكون البيان العملى للإنتصار للموضوعية والدعوة إليها،أن يكتب الداعية الموضوعى المسيحى العقيدة عن الإسلام،عن محمد،بدافع من الرابطة الإنسانية ومن الوحدة القومية ومن تكوينه النفسى أيضا.

(١٠)

يعود نظمى لوقا مرة أخرى إلى كتابة تكوينه النفسى،كان قد فعلها عندما حكى عن الصبى فى المسجد،لكنه هنا يحكى بنضج أكبر وتحت عنوان «نفس وما سواها»...يكتب نظمى:

الله وحده يدرى كم هو شاق أن يعرى المرء أعماقه أمام الكافة،وليس من وراء ذلك رغبة فى التباهى،فما فى أعماقنا إذا ما تحرينا الأمانة العلمية معظمة ليس مدعاة للزهو،بل الأمر بالعكس فى أغلب الأحيان،والله وحده يعلم كم كلفنى من جهد أن

أتغلب على ضروب المقاومة الذاتية كى أتعقب وأقتفى أثر مكوناتى النفسية منذ الطفولة،ففيها الكثير مما يسبب الحرج لى،ولأعزاء على نفسى،ولكن ذلك كان أمرا لا مفر منه كى أفهم نفسى ودوافعى واتجاهاتى التى كثيرا ما سببت لى المتاعب،ولكنها كانت مفروضة على من داخلى فرضا لا فكاك منه،وما دمت قد سلكت طريق الصراحة والمصارحة مع الناس،ووقفت حياتى على هذا،فأولى بى أن أبدأ بالصراحة فى مواجهة نفسى،بلا مواربة وبلا هوادة.

كانت البداية ظروف مولدى،فقد جئت الثمرة الأولى لزواج أب شاب متوسط التعليم،ولكن طموحه الدنيوى كان فوق المتوسط بكثير،وأم كانت أقرب إلى الطفولة،كانت غريرة فى الثالثة عشرة لم يتح لها بعض التعليم الإبتدائى،مع تربية غير مستنيرة،فى بئية كانت الأفكار الخرافية تشكل فيها معظم تصورات الإناث،فلا غرابة وهى الطفلة التى لم تكد يكتمل نموها البدنى،أن مرضت بحمى النفاس عقب ولادتى،ولم يتح لها إرضاعى،ولولا عطف بنات الحلال من الجارات وذوات القربى ممن يرضعن لما كتبت لى الحياة،بل كانت القريبة العجوز التى ترعانى وأمى فى المستشفى تطوف فى يومى سوق المدينة – دمنهور – وهما يوم الاثنين ويوم الجمعة لترضعنى ذوات الأطفال من الفلاحات الغريبات على سبيل الإحسان،فلم نكن يؤمئذ نعرف الألبان الجافة التى يتغذى بها الأطفال.

ولكن أمى التى لم تتمكن من إرضاعى من لبن صدرها،جعلت همها كله فى ملء رأس لعبتها الحية – أنا – بلبن من نوع آخر هو تصوراتها الطفولية عن الناس وعن الدنيا.

ولما كانت صحتى منذ طفولتى الأولى معتلة،وبنيتى شديدة الضعف،فقد أحاطنى والداى بسور يعزلنى عن كل مخالطة مع الأقران والأنداد،وصارت أمى

هى مصدرى الوحيد لكل تصور للناس وما بينهم من علاقات،أما أبى فكان رجلا داجنا ما أن يعود إلى البيت حتى يلزمه إلى الصباح التالى فيجالسنى وأمى،ويطالع لنا فى كتب كان يقتنيها،كان أهمها كتابان:كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة،ثم روايات معربة تدور حول المغامرات والفروسية،أو يحدثنا عما يغلط به الناس عن أخبار الحركة الوطنية،وما أن قاربت ختم عامى الثانى حتى أنبت هذا المناخ – الذى نمطه الكبار دون سواهم فى السلوك – لهفة شديدة من جانب الطفل أن يدخل عالم الكبار من بابه الوحيد الذى كان لم يزل موصدا فى وجهه،وهو باب القراءة.

وسارع أبى فى فرح بالغ إلى فتح هذا الباب على مصراعيه،وساعدت اللهفة الطفولية المشبوبة على سرعة التعلم فى نهم شديد،هو مجال النشاط الوحيد لطفل لا يعرف اللعب مع الأقران،ولا الرياضة ولو فى صورة تلك الشيطنة التى تعهد فى الصغار الأسوياء،وهكذا باتت القراءة والفضول إلى المعرفة ميدان الشيطنة الوحيد لهذا الطفل العليل الذى تكفى نسمة هواء كى تلزمه الفراش أسابيع.

وأغالب الحياء وأنا بسبيل هذا التشريح الذاتى،ولا حياء فى العلم،فأقول : أن جدى لأبى كان متوفى،وأن أمى شبت يتيمة من نوع عرفت فيما بعد أنه كثير الحدوث فى المجتمع المصرى،ولكن ليس بين أمثالنا من المسيحيين،فقد كان أبواها مطلقين،وذلك كما أوحى إلى فى ذلك المناخ،سقطة أو وصمة،وتزوجت جدتى لأمى من رجل كان موضع الكراهية من أسرتى،لا لشئ إلا لأنه تزوج جدتى.

ثم اكتشفت حين شببت عن الطوق أنه مفترى عليه،فقد كان رجلا ممتاز الثقافة،أوقعته ظروف الزواج يومئذ فتزوج هذه المرأة الواسعة الثراء المعتدة بثرائها،والمعتدة على الأخص بأميتها الفكرية،أما جدى لأمى وكان ابن عم أمى فكان والدى،بموافقة أمى الناقمة على أبيها،قد حرم عليه دخول البيت؛لأنه كما كانا

يكرران أمامى دائما هو سبب البلاء،فهو شديد الولوع بالنساء وبالشراب،خليع ماجن لا يشعر بالمسئولية عن شئ ولا يبالى الملام،فضيحة تدب على قدمين.

وهكذا أضيف عنصر جديد هو صرامة المقاييس الخلقية والنقمة والإزدراء لكل انحراف عن سواء السبيل أو الجز عن التحكم فى الرغبات والشهوات،التى هى من وسوسة الشيطان.

سار كل شئ على ما يرام،فخلت حياة الطفل النفسية من الأزمات وألوان الصراع الداخلى،وخلت من الإحتكاك بالعالم الخارجى الذى صوروه له حافلا بالشر والسوء،فهو لا يعرف أو لا يسمع عن أحد إلا نمطين مقتابلين تماما،الزعيم البطل المعبود سعد زغلول،الذى كانت صورته هى الصورة العائلية الوحيدة فى البيت،أى كانت تقوم مقام صورة الأب أو الجد الذى كانت تتباهى به الأسر الكبيرة،وهذا النمط البطولى هو المثل الأعلى عند ذلك الطفل،ويقابله النمط الآخر المزدرى رغم قرابته الحميمة وهو جده لأمه،وفيما عدا هذا لا علاقات مباشرة بأحد.

ولكن قبيل الرابعة من عمره رزقت الأم بطفل آخر،ففكر الأبوان فى إرسال الطفل الأول إلى المدرسة،ولم تكن هناك رياض أطفال،بل مدرسة أولية هى مدرسة العريان،هكذا كان اسم الوجيه الذى أنشأها وأوقف للإنفاق عليها جزاه الله خيرا.

وذهب الطفل الضعيف البنية المتضخم الرأس حجما ومضمونا،إلى تلك المدرسة فإذا أولاد فى ضعف عمره أو أكبر فى جلاليب،وبعضهم يلبس قبقابا ،وبيد كل منهم مخلاة من القماش بهذا اللوح وقلم الإردواز وعلى رأسه طاقية،وليس للمدرسة فناء،فهم يتجمعون فى الشارع الضيق المبلط بأحجار مستطيلة صغيرة سوداء،حول عربات الحلوى الرخيصة وغزل البنات،والدندرمة،فكان أول التقاء

لـه بالعـالم الخـارجى مـع أبنـاء جيله،وصـدمته حقـارة مظهرهم،وصـدمتهم – أو استثارتهم – قامته الصغيرة وأناقة بدلته وحقيبته وطربوشه،وهبوطه من العربة الحنطور فى صحبة حسين خادم الأسرة،وصدمته أيضا ألفاظ غريبة يتراشقون بها ثم يتعاركون أو يتضاحكون،ولم يفهم تلك الألفاظ ولكنه أحس من ردود الفعل أنها صفات غير كريمة ترمى بها الأمهات خاصة.

دخل قاعة الدرس فإذا هو أوليات الأبجدية،التى تجاوزها منذ أمد طويل،فهو الآن يقرأ الصحف والكتب،وأدرك الشيخ مستواه فنقله إلى فصل أعلى،ونظرات أقرانه تكاد تلسعه،وفى الفصل الأعلى كان الشيخ الآخر يكتب على السبورة،حين اختطف الصبى الذى بجوار الطفل قلمه الإردوازى عنوة،فصاح به:

- هات قلمى

وقال الشيخ وهو يواصل الكتابة على السبورة:

- من ابن الكلب الذى تكلم بغير إذن؟

فوجد الطفل نفسه يثب من مكانه كمن لدغته عقرب،ويتجه إلى الشيخ عند السبورة ويسأله باستنكار:

- أجئنا إلى المدرسة لنتعلم الأدب أم قلة الأدب؟

وثارت ضجة واحتقن وجه الشيخ،وتناول يد الطفل فى قسوة وراح يلويها،فانقض الطفل على يد الشيخ وأنشب فيها أسنانه،وأفلته،وجرى يهبط السلم،والفصل يموج بالهرج،وتوجه إلى الشيخ الكبير – ناظر المدرسة – وكان من معارف أبيه،وانفجر أمامه باكيا من الغيظ،وما لبث أن لحق به خصمه فى حالة هياج،وهمس الناظر فى أذنه فهدأ..ثم التفت الناظر إلى الطفل وقال له:جزاء الكلام فى الفصل بغير إذن حاضر فى الحجرة المقابلة ...تعال معى.

وجره جرا إلى حجرة كان فى أرضها غطاء حجرى لبئر،وفيه حلقة حديدية – عرف الطفل فيما بعد أن تلك البئر مخصصة للصرف الصحى بالمضخات كما هو الحال فى بيوت معظم المدن فى ذلك الحين،وقال الناظر:«هنا يعيش التمساح الذى نلقى إليه بالأولاد الذين يتكلمون فى الفصل،وسأعفو عنك هذه المرة لأنك كنت لا تدرى هذه الأصول.

ولما ذهب الطفل إلى البيت مستقلا الحنطور،كتم عن والديه ما كان ولم ينم طول ليلته مشغول الخيال بالتمساح،وفى الصباح طلب من أبيه شيئا سمع التلاميذ يقولونه،وهو المصروف،الذى يشترون به تلك الحلوى والدندرمة وعبس أبوه،ودقت أمها صدرها،وحذراه من تلك السلع،قائلين إنهم وضعوا فيها سما يقتل آكليها،وحدثته أمه عن صفرة لون الدندرمة حديثا ملأه تقززا،وأعطياه قطعا من الشيكولاته والحلوى الممتازة التى كانا قد عوداه عليها فى البيت.

وصدق ما سمعه كعادته،وذهب إلى المدرسة يغلى بالرعب والقلق على مصير آكلى تلك السموم،ورأى الصبية كعادتهم يشترون ما تعودوا على شرائه،وركبه من الخوف عليهم ما بعد وما قرب،فاندفع يصرخ بصوته الضعيف بأعلى ما استطاع يحذرهم من السم الذى وضعه الرجل فى الحلوى،ومن بول الحمير الذى قالت أمه أن بائع الدندرمة الصفراء يلون به سلعته المشتهاة.

هاج الباعة وهاج الأولاد حتى خرج الناظر إليهم،واستخلصه من بين أيديهم،وهو يبكى ويتوسل إليه أن ينقذهم حتى لا يموتوا بالسم وبول الحمير.

وأخذ الناظر إلى حجرته وهو يضحك،وراح يوضح له أن ما قالته له أمه غير معقول،فما الذى يحمل الباعة على قتل زبائنهم وهم مصدر رزقهم؟وإنما مراد أمه حمايته مما عسى أن يكون فى هذه المصنوعات الرخيصة من قذارة غير مقصودة،ربما

سببت أمراضا،ولكنها بالتأكيد خالية من السم،فلا تفزع خوفا عليهم إلى هذا الحد،فكل يوم يأكلون منها بالمئات،وأما لون الدندرمة الأصفر فمن صبغة الكركم ولا علاقة لها ببول الحمير،وعلى كل حال لا تخرج فى الفسحة معهم،وابق هنا معى،وسأرسل من يأتينى بالدندرمة وأكلها أمامك.

وعند الظهر خرج مع التلاميذ ليجد الحنطور فى انتظاره،وإذا بالأولاد جميعا يزفونه منطلقين مهللين وراء العربة :العبيط أهه.

فكانت هذه الحادثة نقطة التحول الحاسمة الأولى والتى طعنت كرامته وشعوره بالاستعلاء أو التفوق على هؤلاء الأجلاف،وهدمت سور الحماية الأموية والأبوية الذى أقر فى نفسه أن والديه هما منبع الحقيقة التامة القدسية ولأول مرة عرف معنى الشك والارتياب ومعنى الوحشية.

لقد جرحت عزة نفسه جرحا غائرا جدا،وشعر بهوان الغفلة،وكان رأس ماله الوحيد هو التفوق فى المعرفة والفهم،فمنذ اليوم وداعا للإستسلام للتلقين،منذ اليوم صارت الأهمية الأولى فى حياة الطفل لحماية نفسه من الغفلة ومهانتها،ومن باب أولى ينفر من استغفال أحد أو خداعه،ولن يتقبل بعد اليوم أى كلام على أساس الثقة بسلطة المتكلم ومكانته،لابد أن يتيقظ ذهنه غاية اليقظة للتثبت بنفسه من حقيقة كل ما يقال له،وأن يحتكم إلى عقله الناقد،ولابد أن يتحرى الصراحة حتى لا يرتكب فى حق أحد ما سببه له أبواه،وإن كان بحسن نية.

وهكذا انقلبت قدسية السور الذى نشأ فى داخله،إلى حنق عليه لأنه لم يعد حصن الأمان،بل القيد والغل ومصدر فخاخ الغفلة والمهانة،وهكذا انتهت بسرعة وفجأة سنوات البراءة والسذاجة،وانتهى سبات الشك والنقد والحذر وبدأ الإغتراب الحقيقى،انتهى عهد الأمان وبدأ عهد الخطر،وأثمرت عقدة الفزع من مهانة

الغفلة،هذه ثمارها البعيدة فى موقفه من الناس،وقد انقلب من الطمأنينة إلى الوالدين وما يمثلان من معرفة وقيم،إلى القلق والتوجس،فهو منذ اليوم فطيم العقل يجب أن يعتمد فى زاد عقله على سعيه المستقل،لن يرضعه أحد معرفة ولا قيمة،بل يتناول كل ما يقدم إليه ليفحصه قبل أن يبتلعه.

ومن هذه العقدة بدأت النزعة المتطرفة إلى الإستقلال الفكرى،لم يبق من المثل العليا لطفولته الأولى إلا الزعيم البطل سعد،وأما المعرفة فعليه أن يبحث عنها باجتهاده المستقل ما وجد إلى ذلك سبيلا،مثلما قال سعد : إن مهمته أن يسعى إلى استقلال مصر ما وجد إلى ذلك سبيلا،وتلفتت نفسه فيما حوله بحثا عن قدوة له فى المعرفة والفهم يناظر قدرة سعد فى الوطنية،ولم يتح له هذا إلا وهو فى السادسة،عندما أتاح له القدر مؤدبه الفذ الشيخ البخارى.

وعلينا أن ندرك أن الشعور بالنقص فى القوة البدنية عند احتكاكه بأقرانه،التمس التعويض فى التفوق بالإستقلال الفكرى وطلب المعرفة،والترفع عن التماس المكانة فى الحياة العملية ومعتركها الجياش الطامى بعداونيين يأنف أن يجعل قيمته مرهونة بميزانهم،أو الدخول معهم فى منافسة الأنداد.

ففى المدرسة الإبتدائية كان الصبى ظاهرة لفتت أنظار أساتذته بسبقه سنه فى أنماط السلوك والتفكير والمعرفة،حتى وهو فى السنة الأولى أو الثانية،يستدعى إلى فصل الرابعة (سنة الشهادة الإبتدائية ذات الحول والطول يومئذ) ليصحح ابن السابعة لذوى الشوارب من تلاميذها الموقرين معلوماتهم،على سبيل التبكيت لهم،فيكون جزاؤه أن ينتظروه عند انصراف المدرسة ليكبسوا له طربوشه ويصفعوه على صدغيه وعلى قفاه ويمزقوا له ملابسه.

فهل من عجب أن يكره بعد هذا ما كان يريده له أبوه من مستقبل فى المحاماة

والخطابة والسياسة؟التى يكون فيها ميزان الأصوات والرضا والقبول بين أمثال هذا الجمهور ...هؤلاء الغوغاء؟

كلا ليكونن سبيله إلى الإرتفاع هو الترفع،وليكن ميدان جهاده بعيدا عن سلطانهم،أى فى دخيلة نفسه وفكره،وهكذا بدأت مرحلة انطواء والعزوف عن مخالطة الناس أو مجاراة أنماطهم السلوكية والفكرية.

وأثمرت هذه الإتجاهات النفسية مرحلة شك مطلق فيما بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة،؛لأن مراهقته التى ضاق فيها بتنبه عنيف لنشاط طارئ عده نشاطا حيوانيا (وكيف لا يفزع وأمامه صورة جده لأمه المروعة؟) وجدت متنفسها فى قمع هذه الحيوانية والإستعلاء عليها بدلا من الإنقياد لها،بالإنصراف العقلى إلى اقتحام سر الكون الأعظم بدلا من اقتحام عالم الجنس مستقلا بنفسه عن الدروب المطروقة،فلئن كان الله موجودا فلابد له من الوصول إليه بعقله هو،فكان كتابه الأول عن فكره الفلسفى الخاص،الذى كتبه وهو فى السابعة عشرة وعنوانه «الله فى نظر الناس وكما أراه»...هو موطئ قدمه الخاص به على شاطئ النجاة من لجة الشك المطلق.

وفزع والده من هذا الإنصراف عن دراسة القانون إلى الإنهماك فى هذا الشئ الذى لم يسمعا بمثله من قبل،ومن نعم الله أن الطباعة كانت زهيدة جدا،فاستطاع أن يدبر نفقاتها من مصروفه الخاص وهو يطلب العلم فى مدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة التى دخلها قسرا،وصار أبواه يضربان كفا بكف،ولكنهما تمنيا أن تكون هذه الفلسفة طيش شباب لا يلبث أن يزول،فيثوب الفتى إلى عقله،ولكن الكتاب استرعى انتباه المرحوم الأستاذ أحمد أمين،وبعث إلى الفتى،وقدمه إلى طه حسين،وخصص له منحة فى كلية الآداب لدراسة الفلسفة ،وركب أبويه المسكينين

الهم،والتمسا العوض من الله عن ابنهما البكر،بأن يحقق تاليه آمالهما الدنيوية، واستجاب لهما الله فصار أخوه الصغير طبيبا وهى مهنة مرغوبة مرموقة.

وواصلت طريقى المستقل كى استكمل فى مسيرة أكثر من أربعين سنة ثانى مذهب فلسفى مستقل فى مصر المعاصرة،بعد مذهب يوسف كرم العقلى المعتدل،وهو مذهبى المسمى الفلسفة التعبيرية مهما تصايح نفر من الناس بأنه لا فلسفة فى مصر اليوم.

وعلى امتداد هذه الرحلة - أو الخيبة كما كانت تسميها أمى - انتقلت إلى تطبيق موضوعية الفكر الفلسفى التى ناديت بها،على التفكير العام،بغية إصلاح تفكير الناس الذاتى الذى وجدت فيه علة فسادهم الفكرى،فكتبت عن محمد بمنهج موضوعى منصف،ثم كتبت عن المسيح بعين المنهج،كى أبرهن على أن الموضوعية هى الأرضية المشتركة الوحيدة بين البشر على اختلاف مذاهبهم،وأنها ممكنة فعلا سواء نظرنا إلى عقائدنا الخاصة أو العقائد المخالفة،ولكن أمى كانت ترى ذلك قمة الخيبة القوية التى ابتليت بها،فكانت تقول لى متحسرة:ما أقل عقلك يا ولدى،إن الناس يريدون إصلاح أرزاقهم ولا يريدون إصلاح عقولهم،فلماذا لا تقدم للناس ما يريدون،وتصر على أن تقدم ما لا يريدون..هذه تجارة خاسرة،أما كفاك أنك احترفت الفلسفة التى لا يريد أحد أن يهتم بها فى هذا البلد؟أليس لك عقل يريك أين مصلحتك؟

فقلت لها:هكذا المفكر ..والمفكر ليس تاجرا،فزوت فمها وقالت بالامتعاض: وهذا أيضا من قلة عقلك،فالتجارة شطارة،ولكنك من يومك وأنت خائب،لم تحسن إلى اليوم ربط حذائك فتسير به مفكوكا معظم الوقت،وقد عوض الله صبر أمى خير،فإخوتى كلهم برأهم الله من خيبتى وكلهم يحسنون ولله الحمد ربط

أحذيتهم.

ونترك الخط العقلى ونتعقب المسار الوجدانى فى تكوينى النفسى،وهو ذو أهمية قصوى فى سلوك كل إنسان؛لأنه مصدر دوافعه واتجاهاته،وهذا شديد الأهمية فى توضيح اتجاهى النفسى إلى تحدى المحاذي بالكتابة عن «محمد والإسلام».

وقد وقفنا عند مركب النقص والسلوك التعويضى الذى مصدره الفزع من الغفلة،والذى جعل مجالى الأوحد تعويض النقص الجسمانى بالإتجاه إلى التسامى بغرائزى،وإلى الترفع عن الدروب المطروقة فى الفكر والقيم،وكيف أنى وجدت مثلى الأعلى فى مؤدبى الأول العالم المتوقد،تلميذ محمد عبده الذى صار قدوة لى فى منهج التعويض عن ضعف البنية،فهو قصير القامة كفيف البصر بالتطلعات الذهنية والخلقية وسمو المبادئ الفكرية والروحية المسرفة فى نزاهتها.

وتخرجت على يده فى العاشرة وبدأت أستقبل رياح الحياة معتمدا على نفسى وعلى القراءة،ونشدت من بعده التوحد أو التطابق مع شخصيات تاريخية ماضية ومعاصرة،صاروا مثلى العليا التى أتقمصها،لا من حيث هم،بل لما يمثلونه من قيم عقلية وروحية وبطولة،فعالم القيم الإنسانية المثلى صار هو انتمائى الحقيقى وملاذى من الاغتراب المبض الذى بدأ فى السنة الرابعة من عمرى.

ولكن البطولة التى يعشقها مثلى لا يمكن أن تكون بطولة القهر والجبروت والعنف،الذى ذقت منه الأمرين،فنفرت من نمطه السلوكى العدوانى،وكان سبب انطوائى وشعورى بالنقص البدنى،واتجاهى إلى التعويض الروحى،فأمثال قيصر ونابليون كانوا بغيضين إلى نفسى؛لأنهم وباء البشرية،أما البطولة الحقة فهى بطولة محبى البشرية المناضلين فى سبيل خيرها.

لذا لم أعتز بأننى سليل خوفو ورمسيس وتحتمس،حاشا،بل إننى سليل أمجد

الفراعنة وأنبلهم..إخناتون،فهذا هو المجد الحقيقى،وفى مثل هذا فليتنافس المتنافسون،وهكذا لم يرتبط المجد عندى بالنجاح،فالنجاح قد يكون غالبا ضؤبا من تسلق يتفوق فيه القردة على البشر،ورب فشل سببه سمو النفس وترفعها عن الصغائر والدنايا،ورب فاشل لمزية فيه وغياب نقص.

ولكنى لم أكن من الغباء النفسى بحيث أطلب أن يكون كل الناس،وكل الأبطال صورة منى ومن نقصى البدنى وعقدتى التى تفزعنى من استخدام القوة ولو لنصرة الحق وخير البشرية إن اقتضى الأمر ذلك.

بل كنت أعرف مواطن نقصى أو عجزى،وأكبر خلو أبطالى الإنسانيين الروحيين الأخلاقيين منها،لهذا أكبرت واشنطن وقد حارب ليستقل قومه،وأكبرت أكثر منه لنكولن الذى لم يتوان فى محاربة طائفة من قومه ليحرر العبيد،وأكبرت أنه استطاع ما أعجز عنه من العنف لنصرة الحق،وعشقت غاندى لأنه بسموه الروحى حارب تعصب بنى دينه مثلما حارب بالعصيان المدنى وعدم العنف مستعمريه من الإنجليز،عشقته حتى أنى كنت أصوم كلما أعلن الصيام،وعشقت المسيح وتعاليمه المثالية،وعشقت أيضا نبى ديانة أخرى غير ديانتى،هدى قومه عبدة الأصنام إلى عبادة الله الواحد وقاوم كل محاولة لرفع قدره فوق مستوى بشريته،وامتشق السيف ليقيم دولة مؤمنة بالله على أنقاض فوضى قبائل كافرة لا خلاق لها.

وهنا تماس هذا الحب لمحمد مع فلسفتى الموضوعية،ووجدت الكتابة عنه بيانا عمليا أو منفستو لموضوعية الفهم والمعرفة والتقدير لمحسن إلى البشرية،وهادى مئات الملايين إلى التوحيد ومحاسن الأخلاق ومكارمها وميزان العدالة فى التعامل مع الناس.

ومثلما كتبت أبصر الناس بسمات الإسلام وسجايا محمد الموضوعية،فى كتابين

هما «محمد الرسالة والرسول» الذى أساءت الكثرة من أبناء الديانتين فهم مراميه و«محمد فى حياته الخاصة» كتبت عن أبى بكر وعن عمر فى موضوعية من يرى فى كل بارقة خير وقدوة وسمو،منارة تصلح أن يستضئ بها البشر الموضوعيون كافة،أيا كانت عقائدهم ،كذلك كتبت فيما بعد «على مائدة المسيح»،بنفس الموضوعية المحايدة التى ينبغى أن ينظر بها إليه كل إنسان أيا كانت عقيدته،أى أننى شرعت هذه الموضوعية وفرضتها طريقا لنفسى قبل غيرى،فيما يتصل بعقيدتى،وما يخالفها على السواء.

(١١)

لقد حرصت على تسجيل ما قاله نظمى لوقا عن نفسه وعن حياته نصا؛لأنه أراد أن يؤكد من خلال العرض التفصيلى لحياته وتكوينه النفسى والدينى،لماذا سلك الطريق الذى مضى فيها منصفا لرسول الإسلام.

ورغم أن بين ما كتبه فى كتابه «محمد الرسالة والرسول» عن حياته،وما كتبه فى كتابه «أنا والإسلام » عن حياته فيه كثير من الإختلاف،لأسباب تتعلق بنضج الرجل وتمكنه من مذهبه الفلسفى،فالفارق الزمنى بين ما كتبه فى المرتين يصل إلى ربع قرن،وهو فارق زمنى سمح له بأن تتضح رؤيته وأن تنضج.

لكن ما لفت إنتباهى بالفعل أن نظمى لوقا وهو يفصل انحيازه إلى الموضوعية فى الكتابة عن تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم،لم يتورط فى الرد على الاتهامات التى اتهمه بها القمص سرجيوس،وهى إتهامات تجعل منه رجلا موتورا كارها لكل ما هو مسيحى،وهو ما نفاه نظمى عن نفسه بطريقة عملية لا ترقى إليها الشك من أى جانب.

إننى لم أبحث عن كتابات نظمى لوقا الإسلامية وأعرضها تفصيليا من أجل

نصرته للإسلام،فكتاباته فى واقع الأمر لم تؤثر كثيرا،ولم تجعل ملايين المسيحيين يدخولون الإسلام؛لأنها ها هى شهادة شاهد من أهلها،ثم إن كثيرا من المسلمين تشككوا فى هذه الشهادة؛لأنهم لا يعرفون شئيا عن الموضوعية،فما دام الرجل يشهد للإسلام ولرسوله بكل هذا،فلماذا لا يعلن إسلامه،ولماذا لا يدخل فى الدين الذى يعتبره خير وحقا وجمالا.

إننى لن أحكم على نية نظمى لوقا،بل أحكم على فعله،ولا يمكن أن أكذبه فيما قاله،لكنى فى نفس الوقت لا أستطيع أن أقاوم إحساسا بأن الرجل كتب ما كتبه سواء عن الإسلام ورسوله ورجاله أو عن المسيح من أرضية الإنسانية،وليس من أرضية الأديان،والانحياز إلى واحد منها على حساب الآخر،بل إننى ساورنى الشك بأن نظمى لوقا من الأساس لا دينى،ولا يهمه أن يكون على دين المسيح أو على دين محمد،لكنه يحب أن يظهر الجمال البادى فى الأديان جميعا.

إن هناك اتجاها بين كثير من المفكرين،لا يهتمون إلى أى دين ينتمون،لكنهم ينتمون إلى الأفكار الإنسانية الراقية التى تفيد البشرية،بصرف النظر عمن قال بها أو ساقها فى طريق العالم.

وهنا لابد أن أثبت نموذجا إسلاميا يقترب فى أفكاره ومنهجه من نظمى لوقا،وهو خالد محمد خالد،له كتاب يكاد يكون مجهولا هو «أفكار فى القمة»...تشى مقدمته بما فيه.

يقول خالد محمد خالد:«لست فى هذا الكتاب مؤلفا إنما أنا قارئ،ومع الفكر الإنسانى فى شتى آفاقه،سنمضى معا وقتا طيبا مباركا فيه،وهذه المختارات التى طالعتها بين ما طالعت عزيزة على أثيرة لدى،ومن أجل هذا أحببت أن تشاركونى متعتها والانتفاع بها،وهى قليل من كثير،مما تركه لنا الفكر العظيم،وهذه المجموعة

التى اخترتها تمثل ما تيسر لى الآن تذكره ثم الرجوع إلى مصادره ونشره،وحين شرعت أختار لم يند عن ذاكرتى الغرض ولا الموضوع،وتألقت فى وجدانى ناصعة مبينة معظم المواقف التى التقيت عندها ذات يوم بكلمات الفكر الرفيع».

أما هذه المواقف التى تحدث عنها خالد فهى بالترتيب وكما قال:

أولا:إنه محمد بن عبد الله عليه صلاة الله وسلامه،ومحمد هذا الرسول الصادق الأمين أحبَّ البشرية من قلبه الكبير،وأعطاها من ذات نفسه،ما يجعل مكانه الأول دوما كلما جاء ذكر الذين آزروها ومهدوا لها الطريق،وهكذا أسعد ببداية سعيدة،تلك هى مع محمد ضد العجز والكذب والألم.

ثانيا:ثم نلتقى فى الصين بلاوتسى وكنفشيوس ومنشيس عمالقة يستنبطون الحكمة من أعماقها ويهدون سواء السبيل.

ثالثا:وفى الهند نلتقى ببوذا،ياله من طود شامخ هذا البوذا العظيم.

رابعا:وفى مصر القديمة نصغى لامنبوبى وبتاح حوتب وخيتى وهم يفكرون تفكيرا أخلاقيا عذبا.

خامسا:ويتلاشى الزمان والمكان فنرى أنفسنا وجها لوجه أمام توم بين،أتعرفونه؟،إنه إحدى معجزات العبقرية البشرية والضمير الإنسانى،إنه القائل:«هذا العالم قريتى».

سادسا:ونلتقى بعده بجوركى فتأخذنا صلصلة فكره المقتحم وتشجينا تغاريده وهو يغنى للحقيقة وللمستقبل،ونودع جوركى سراعا لنلاقى إقبالا،محمد إقبال،إنه شاعر الهند وباكستان وفيلسوفهما الكبير،سنقرأ له،وهو يحدثنا عن التجربة الدينية وعن مكانها فى عصر العلم والتجريب.

سابعا: وبعد إقبال نصافح فرويد إنه رجل يخشى ويحذر،فله على فضح النفوس وكشف خفاياها مقدرة خارقة،بيد أنه مع هذا يهدى إلينا من خير أطايب الفكر البشرى وأكثرها نفعا.

ثامنا: وثمة جرس يقرع،ماذا تقول كلماته؟إنها تردد كلمات رابليه:هنا ادخلوا ..ادخلو جميعا ..لندعم الإيمان العميق،فإذا دخلنا التقينا بالكاتب والأديب الفرنسى الكبير ديهاميل،أما الإيمان العميق الذى جلس هناك يدعمه فهو الإيمان بالفكر وبرسالة الأدب والفن.

تاسعا: ونسارع صوب هذا الفن المزهر فثمة طائر يغرد،إنه إمرسون حكيم لا يمل سماع حكمته،ولسوف ينذرنا قائلا:«إن من يختار الراحة لن يشاهد الحقيقة،ومن يختار الحقيقة يقضى العمر سابحا بعيدا عن كل مرفأ».

عاشرا: ونسرع الخطى،فنحن مع العملاق على موعد،تولستوى أيها الأصدقاء،الرجل الذى ودع الراحة والمرافئ،وآثر رفقة العذاب العظيم والنبيل،بحثا عن الحقيقة.

جمع خالد محمد خالد هؤلاء جميعا على ما بينهم من اختلاف وتباين،لا لشئ إلا لأنهم خدموا الإنسانية،وهو ما فعله نظمى لوقا،لقد أنصف محمدا ودينه لأنه قدم إلى البشرية خدمات جليلة.

وهو ما نبحث عنه،ليس مهما أن أختلف معك أو تختلف معى،المهم أن نتعايش،ورغم أن هذا صعب جدا..إلا أننا لا يجب أن نمل من البحث عنه.. فالإنسان يستحق أن نتعب من أجله.